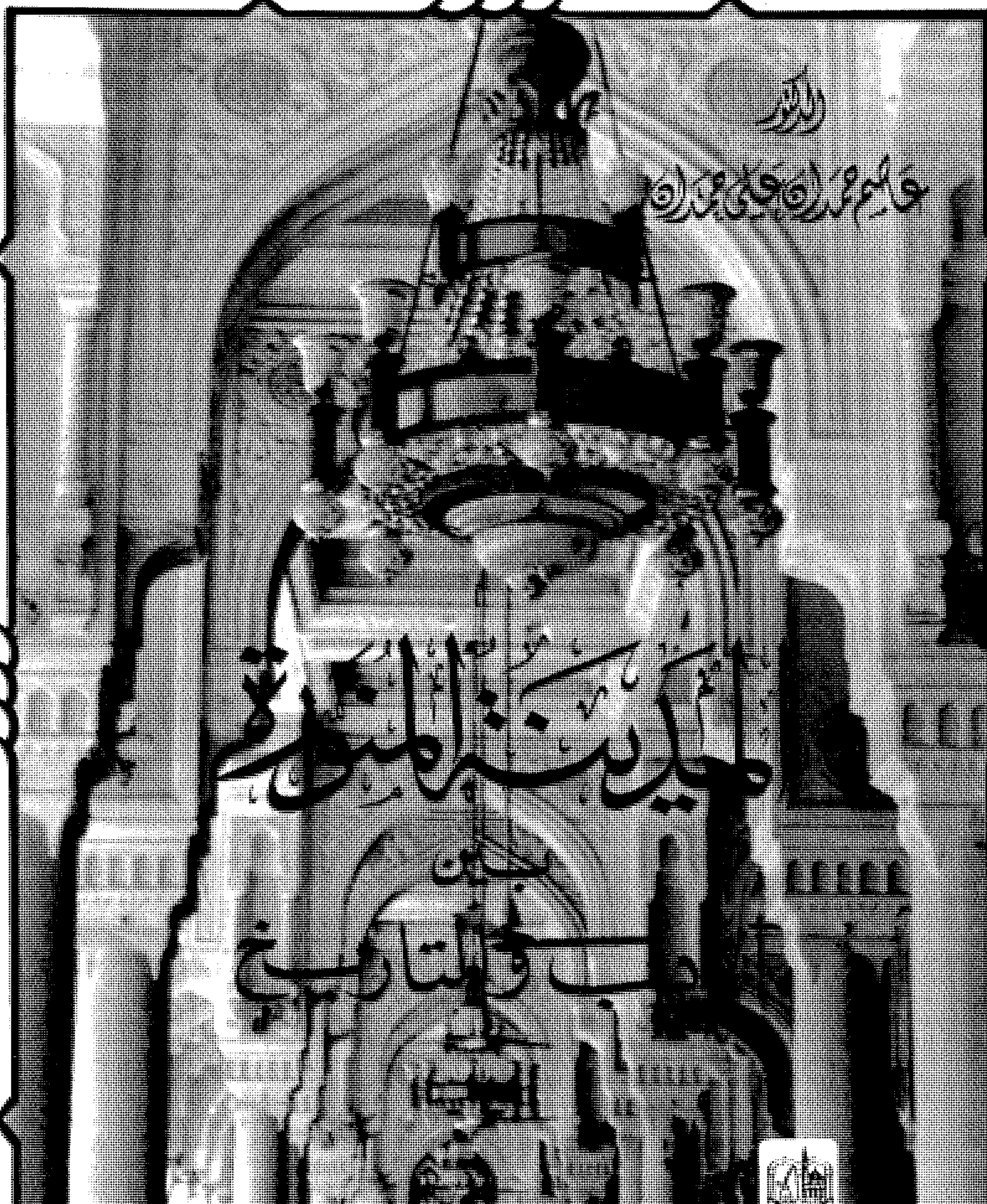


الدكتور
عاصم حمدان علي حمدان

المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ

نادي المدينة المنورة الأدبي

الطبعة ... لى
١٤١٣هـ ـ ...٩٩...م

اهداءات ١٩٩٤

المملكة العربية

السعودية

المدينة المنورة

بين

الأدب والتاريخ

تأليف

الدكتور/ عاصم حمدان علي حمدان

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩١م

طبعت بمطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر
ص ب ٤٧٦٩٧ جدة ٢١٤١٢ ت ٦٧١٢١٠ المملكة العربية السعودية

الدكتور / عاصم حمدان علي حمدان

المدينة المنورة

بين

الأدب والتاريخ

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من توارى جثمانه ووري ثرى طيبة الطيبة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبارك على آله وصحبه وسائر الأنبياء والمرسلين.

جرت العادة في تقسيم الأطراف ذوات العلاقة في الأعمال التدوينية إلى ١- **مؤلَّف. ٢- ومؤلِّف. ٣- قارئ.** بيد أن العمل الذي بين أيدينا يتميز بإضافة عنصر رابع لتصبح عناصره:

١- موضع. ٢- موضوع. ٣- مؤلف. ٤- قارئ.

فالموضع هو المدينة المنورة.

ولم يكن ليتأتى للمدينة أن تحظى بما حظيت به لولا أن اختارها الله عز وجل لتكون موضع الهجرة لنبيه صلى الله عليه وسلم لتستحيل حُمَّاها الموهنة إلى قوة متدفقة في شريان الكيان الإسلامي فتمتد أطناب دولته حتى غشيت جل أصقاع الكرة الأرضية وتصبح طيبة أول عاصمة للدولة الإسلامية.

ولن أستفيض في ذكر فضائل المدينة ومزاياها فالمرء يجل مكة والمدينة عن أن يمر بهما مر الكرام في التوطئة لمؤلف وقد أُفردت لهما المتون الضخام وعم خبر فضلهما القاصي والداني فَهُما العينان اللتان نظر بهما الإسلام إلى الدنيا ويشرئب إلى النظر إليهما كل مسلم. حتى غدا التأليف فيهما شرفاً يغبط به من ناله وفضلا يتوق إليه من لم ينله.

والموضوع يتمحور حول تاريخ وأدب المدينة المنورة خلال فترة زمنية امتدت من القرن الثاني عشر الهجري حتى العصر الحديث لتشمل حقبة منيت بالكثير من الحيف والظلم خلال تاريخنا الأدبي في مجمله حتى وُسمت جوراً بعصر الجمود والانحطاط عوضا عن العصر المملوكي والعثماني فجل نتاج هذه الفترة لا زال متواريا ومخطوطا كما أن الباحثين انصرفوا إلى العصور الأخرى وتنكبوا عن هذا العصر فكما أن الحكم على الشيء جزء من تصوره فإن الحكم على هذا العصر مرتهن بإبراز نتاجه وتحقيق مخطوطاته والعكوف على موضوعاته وشخصياته دراسة وتحليلا ليتسنى إصدار الحكم له أو عليه.

ولقد وفق المؤلف في العزوف عن التوجه النمطي السائد في دراسة الأدب بأن

جنح عن المنحى الأفقي في الدراسة لتغطي مرحلة متعاصرة وركز على التوجه العمودي في انتقاء التوجه العمودي للشخصيات والقضايا المتواشجة والمترابطة لتمتد حتى المرحلة المعاصرة كمسار متتابع يفضي بعضه إلى بعض وهو توجه يتوقُ بعض من الدارسين إلى تسويده واحتذائه.

أما المؤلف فهو خير من يتصدى لهذه المهمة على عسرها وصعوبتها فهو ابن المدينة مولداً ونشأة وابن بجدتها في الأدب تخصصاً وتمرساً وعلى الرغم من أنه أخذ بالمفهوم السائد في تعريف الأدب من لدن الجاحظ وامتدادا إلى ابن خلدون من أنــه (الأخـذ من كل علم بطرف) إلا أنه تعمق في كل علم امتدت له رؤاه وتطلعاته حتى بدا فيه خبيراً متمكناً يتضح في ذكاء التناول العصري والأسلوب المتـدفق في معــالجــة الشخصيات معالجة علمية موضوعية تقوم على العبارة الموجزة والفكرة المكثفة مهتبلا فرصة الود والعلاقات الحميمة في الاستفادة من المصادر الشفهية قبيل تواريها عن عالم الشهود موثقا النصوص بأقوال أصحابها أو من عاصروهم وهو أمر لا يتأتى إلا لمن حباه الله خلق المؤلف في بناء جسور الود ودأبه في الانكباب على العلم احتساباً وقربى وهو بذلك يرود سبيلا بكراً يتيح للآخرين فرصة سلوكه وانتهاجه ويغرينا بمطالبته بالمزيد للكشف عن هذه الكنوز التي كنا نتوق إلى الاطلاع عليها ومعرفتها.

وآصــرة العلاقة التلازمية بين مكة والمدينة تفسر وشيجة الإخاء والود التي ربطتني بأخي وصديقي وزميلي الدكتور عاصم وأقسرتني على الاستجابة لتفضله بطلب تدوين هذه المقدمة سائلا الله له التوفيق والعون في مستقبل أعماله وحياته وأن يجعلها في ميزان أعماله خالصة لوجهه الكريم.

وصلى الله وسلم وبارك على خير من احتضنته تربة طيبة الطيبة سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسائر الأنبياء والمرسلين.

د. جميل محمود مغربي
أستاذ مادة النقد بكلية الآداب
بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة

تمهيد

لم تحظ مدينة كما حظيت **مدينة الرسول** ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتوجيه العناية الى كتابة تاريخها والمتمثل في تدوين أخبار وسيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحابته ـ رضوان الله عليهم ـ كما فعل عمر بن شبة النميري (١٧٣ ـ ٢٦٢هـ) في كتابه «أخبار المدينة النبوية»، وفي الاعتناء كذلك بتتبع الآثار النبوية الصحيحة بين ربوعها الطيبة كما نجد ذلك عند الحافظ محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي (٥٧٨ ـ ٦٤١هـ) في كتابه «الدرة الثمينة في أخبار المدينة» وعند جمال الدين محمد ابن أحمد المطري (٦٧٦ ـ ٧٤١هـ) في كتابه «التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة». وعند زين الدين أبي بكر بن الحسين بن عمر المراغي (٧٢٧/٨١٦هـ) في كتابه «تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة».

كما **نلاحظ** أيضاً اهتماما يبدو في الاهتمام بتاريخ رجالها كما هو عند عبدالله بن محمد بن فرحون (٦٩١ـ٦٦٩هـ) في كتابه المخطوط بمكتبة عارف حكمت بالمدينة والمعروف باسم «نصيحة المشاور وتعزية المجاور». وعند مؤرخ آخر هو محمد بن عبدالرحمن السخاوي (٨٣١ـ٩٠٢هـ) في كتابه «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» بأجزائه الثلاثة التي نشرها أسعد طرابزوني ـ يرحمه الله ـ أما العناية بتاريخها الأدبي فنجد نموذجا له عند الشيخ عمر بن عبدالسلام الداغستاني المتوفى بعد سنة (١٢٠١هـ ـ ١٧٧٦م) الذي ألف كتابه «تحفة الدهر ونفحة الزهر في شعراء المدينة من أهل العصر» وهو كتاب هام يبرز مدى اهتمام مثقفي المدينة في فترة القرن الثاني عشر الهجري بفنون الشعر والنثر المختلفة، وتعاطيهم لتلك الفنون حسب المقاييس الأدبية لعصرهم، كما أن التأريخ لجوانب الحياة الاجتماعية فيها لم يخل هو الآخر من اهتمام خاص، كما يبرزه لنا جعفر ابن هاشم الحسيني من أدباء المدينة في القرن الثالث عشر الهجري في كتابه المخطوط «الأخبار الغريبة فيما وقع بطيبة الحبيبة».

* ولقد أخذت منذ زمن في تقصي هذه المصادر بجانبيها التاريخي والأدبي ـ المخطوط منها والمطبوع ـ ودراستها دراسة أكاديمية، فرأيت أن أضم هذه الدراسات التي يجمعها نسق واحد في هذا الكتاب الذي آمل أن يجد فيه المهتمون بدراسة فكر وأدب وتاريخ هذه البقعة المطهرة شيئا مما يتطلعون إليه أو يوجهون إليه اهتماماتهم العلمية.

* ولعله من الواجب أن أتقدم ـ هنا ـ بالشكر الجزيل لصديقي الدكتور محمد يعقوب تركستاني ـ الأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة ـ على احتفائه ببعض هذه الدراسات ونشره لها في ملحقه العلمي المعروف بصحيفة المدينة المنورة، وشكرا آخر أسديه إلى زميلي الشاعر الدكتور جميل محمود مغربي الأستاذ بكلية الآداب بجامعة الملك عبدالعزيز على تكرمه بقراءة أصول هذا الكتاب واقتراحاته المفيدة حول النشر النهائي، ولعله من الواجب أيضا أن أخص بالشكر الصديق الدكتور يحيى محمود الساعاتي ـ رئيس تحرير مجلة عالم الكتب ـ الذي رحبت مجلته بنشر بحثي عن العالم أمين بن حسن الحلواني ـ رحمه الله ـ والذي يدخل ضمن مواد هذا الكتاب.

والله ولـــي التوفـيـق.

عاصم حمدان

جدة: ١٤١١/٨/٢٤هـ

القسم الأول

الدّراسات الفكرية والأدبية

شعراء المدينة المنورة والشعر الملحمي
في القرن الثاني عشر الهجري

(١)

** من الإنتاج الأدبي غير المنشور، في القرن الثاني عشر الهجري ـ الثامن عشر الميلادي. عدد من القصائد الطويلة الذي احتفظت لنا بتاريخ الحوادث الاجتماعية، التي شهدها مجتمع المدينة المنورة في تلك الآونة.

لقد استثارت الحوادث قرائح كثير من الشعراء في ذلك الحين: الذين استهلوا قصائدهم تلك بالإشارة إلى أسباب الحادثة الاجتماعية وتاريخها ويكون هذا التاريخ مفصلا ـ أحيانا ـ بذكر اليوم والشهر والسنة، ثم التعرض إلى الجماعات التي شاركت في هذه الحادثة. وبشيء من التفصيل عن سلوكهم وأخلاقياتهم، ثم تنتقل القصيدة للحديث عن تطور هذه الحادثة. والآثار الذي تركتها على البيئة المحلية. وعلى الأخص على إنسان تلك البيئة.

* *

** ولقد دفعت المعالم المتميزة لهذه القصائد ناقدا كالسيد «عبيد مدني» ـ رحمه الله ـ إلى إطلاق ملحمة[١] على بعض تلك القصائد، ولعله شيء أساسي أن نعرض للتعريف الحقيقي لمصطلح «ملحمة» وبدايات استعماله في تاريخ الأدب العزبي، وصلة هذا المصطلح نفسه بمفهوم الشعر الملحمي في ثقافات الأمم الأخرى.

** يذهب ابن منظور إلى تعريف الملحمة بأنها الحرب ذات القتل الشديد، ويضيف كذلك تعريفاً آخر لها بأنها الوقعة العظيمة في الفتنة[٢].

** وفسر الشريشي القول الوارد في المقامة الثالثة عشرة من مقامات الحريري، والمعروفة بالمقامة البغدادية «قد فتن كلامك فيكف إلحامك» أن إلحامك تعني نسجك الشعر.[٣]

** «د.ب. ماكدونالد» يعلق على جذور كلمة «ملحمة» وتطور معناها، كما يلي: «يحيط كثير من الغموض بالأصل الاشتقاقي لكلمة ملحمة، وتطور معناها، فالكلمة لم تظهر في القرآن الكريم، أو بالأصل الجذري للحم ولحوم، أي ذلك المتمثل في المعني المادي الخالص، علاوة على ذلك فالجذر ـ ل،ح،م ـ يكتسب ـ كما في الأصل اللغوي العبري للكلمة نفسها ـ معنيين قديمين، ولكنهما منفصلان، وهما: الطعام، والقتال، يضاف إلى ذلك فإن أصل الكلمة الدالة على الطعام في اللغة العبرية Lehem هو: الخبز، وهو ـ في الوقت نفسه ـ يعد معنى مرادفاً لكلمة ـ لحم ـ بالعربية.

وربما ذلك يوحي بإمكانية انفصال المعنيين بعضهما عن بعض في الأصل السامي، أكثر مما يوحى بعملية الاستعارة أو الاقتباس.

وفي العربية ـ قديما ـ تعطينا كلمة ـ ملحمة ـ معنى القتال الحاسم، الذي يقود إلى الهزيمة، أو المطاردة، التي تتسبب في إلحاق الذبح والقتال بالطرف الآخر».

كما ذكر «ماكدونالد» ـ أيضا ـ تعريف «ابن خلدون» للملحمة، وهو «كتب متعددة في الحوادث والتغييرات المتصلة بالأسر الحاكمة، وتكون صياغتها شعرا، أو نثرا، أو رجزاً».(٤)

** ولكن هل يحق لنا أن نقارن القصائد الجاهلية القديمة، والمعروفة بالمعلقات، والتي تتعرض لحوادث تاريخية معينة معلقة زهير بن أبي سلمى وما أجالته حول حرب داحس والغبراء بملاحم «هومر» Homer الإغريقية: الإليـاذة (ILiad) ، والأوديسة The Odyssey ، أو الملاحم التاريخية الفارسية، كالشاهنامة للفردوسي؟

الناقد «مارون عبود» يرى أن قصة الإلياذة شديدة الشبه بقصة عنترة(٥)، بينما يعتقد د. س. مرجليوث أن حظ المعلقات من المعلومات التاريخية يكاد يكون ضئيلا.

أما «جورج غريب» فيذهب «إلى أن في مطولات عمرو بن كلثوم وعنترة والحارث بن حلزة من مميزات الملاحم ما ليس في غيرها» ولكنه يعود إلى القول بأنه «من الإنصاف اعتبار المطولات العربية من قبيل الفخر والحماسة لا من قبيل الملاحم».(٦)

ولقد ناقش «سليمان البستاني» في مقدمة ترجمة إلياذة «هومر» قضية التقارب بين جاهلية العرب وجاهلية اليونان، إلا أنه خلص إلى أن «المشارقة لم ينظموا الملاحم بالمعنى الصحيح، فرغم ما توفر للأعراب من أدوات الفصاحة، فعدم التطلع إلى ما وراء الطبيعة وقف حاجزا دونهم ودون تحقيق هذا النوع من الأدب، بيد أننا ـ ونحن نلقي نظرة على بعض كتب الأدب بعامة، وجمهرة أشعار العرب بخاصة ـ نستطيع القول بشيء من التوسع إنه كان للمشارقة، من جاهليين ومولدين، نوع من الملاحم القصيرة تناولوا فيها حوادث معينة»(٧).

ولكن «د. س مرجليوث» في محاضرته الموسومة بعنوان: «الشعر أداة فكرية للتاريخ» أوضح أن هناك نوعا من المماثلة بين بعض الإنتاج الشعري، في مرحلة العصر الإسلامي، وبعض الأعمال الملحمية العالمية، مع الأخذ في الاعتبار أن هذا الانتاج العربي الشعري الذي يتوجه لتخليص الحوادث التاريخية، يظل مفتقداً لبعض السِّمات الملحمية، كالحبكة أو العقدة ولهذا نجده يعقدُ مقارنةً بين القصيدة التاريخية عند الشاعر العباسي عبدالله ابن المعتز «أرجوزة المعتضد»(٨) وبين ملحمة الشاعر (Tasso) تاسو، والمعروفة باسم (jerusalem, Delivered) «تحرير القدس» والتي تعرض فيها لحوادث الحملة الصليبية الأولى.

ويدّعى «مرجليوث» أن بناء القصيدة العربية هو أكثر ملاءمة لتعدد الموضوعات منه إلى الموضوع الواحد، كما هو ضروري في البناء الملحمي ولهذا فإن القصائد التاريخية الملحمية في الأدب العربي تمت صياغتها في بحر الرجز(٩) لأنه الوحيد الذي يتلاءم مع هذا الفن الشعري.

*** وسوف نتعرض بالتفصيل لرأي «مرجليوث» هذا الذي يتجنى فيه على القصيدة العربية، وذلك ناشيء من عدم إحاطته بتاريخ الأدب العربي، وسوف تقدم الأمثلة الشعرية من إنتاج شعراء الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر «الدليل الواضح على أن القصيدة العربية ذات البحر الشعري الطويل قادرة على استيعاب الموضوع الواحد ذي الصبغة الملحمية التاريخية، وأن هذه القصيدة ـ في الوقت نفسه ـ احتفظت برونقها الشعري، وصياغتها الفنية الجميلة.

* * *

الاحـــالات:

(١) بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين، جدة، ١٣٩٤هـ ص: ٧٢٣ـ٧٤٠.

(٢) جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور: لسان العرب، (دار صادر، بيروت)، المجلد الثاني عشر، ص ٥٣٧، مادة لحم.

(٣) ابوالعباس أحمد بن عبدالمؤمن الشريشي: شرح مقامات الحريري، ط الأولى ـ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

(٤) مادة ملحمة في «الموسوعة الإسلامية» الطبعة الإنجليزية الأولى ص ١٨٨، ومادة حماسة ـ أيضا ـ في الموسوعة نفسها، الطبعة الثانية.

(٥) مارون عبود: أدب العرب، بيروت ط ٣، ١٣٩٨هـ، ص ٧٨.

(٦) جورج غريب، الشعر الملحمي، تاريخه وأعلامه، بيروت ط ٣، ص ١٠.

(٧) جورج غريب، سليمان البستاني في مقدمة الإلياذة، بيروت ـ بدون تاريخ ـ ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٨) يصفه الدكتور طه حسين بالشعر التعليمي، تاريخ الأدب العربي، بيروت ط ٢، ١٩٧٦، ج ٢، ص ٣٩٩.

(٩) ديفيد صمويل مرجليوث: محاضرات عن المؤرخين العرب «الطبعة الإنجليزية» كلكتا ١٩٣٠، ص ٨٠.

(٢)

** في الحلقة الماضية، التي خصصت لدراسة تحديد المصطلح الشعري «ملحمة» رأينا أن هناك نماذج من الشعر الجاهلي والإسلامي، مما يمكن إدخاله ضمن دائرة الشعر الملحمي من منظور النقد العربي.

ولا بد من الإشارة إلى أن تجارب شعراء المدينة، في القرن الثاني عشر الهجري، في هذا العمل الشعري الخاص، إنما هي محاولة لإحيائه، ونفض الغبار عنه، وتكتسب المحاولة أهميتها أنها أتت في عصر من عصور الركود الفكري والأدبي.

** ولكن السؤال الذي يمكن طرحه: هل كان هؤلاء الشعراء واعين بالفن، الذي توجهت ملكاتهم للإبداع فيه؟

لقد ورد لفظ «ملحمة» في مطولة من مطولات الشاعر السيد جعفر إبراهيم البيتي[١] وجاءت اللفظة مقترنة باسم شاعر من أشهر شعراء العصر المملوكي، وهو شمس الدين بن دانيال[٢] (٦٤٦ـ٧١٠هـ) والبيت ورد عند الشاعر «البيتى» كما يلي:

حوادث ما رآها دانيال ولا
قصت «ملاحمه» شيئا يساويها

واشتمال البيت على اسم هذا الشاعر ـ بعينه ـ فيه دلالة على مصادر الثقافة الشعرية لشعراء تلك الفترة، ومدى تأثيرها في إنتاجهم الشعري، أإن الشاعر كان واعيا بأنه يقوم بوصف حوادث ملحمية، وأن هذا الوصف كان نتيجة طبيعية لتفاعل الشاعر مع تلك الحوادث، التي شهدها مجتمع المدينة، في فترة القرن الثاني عشر الهجري، أو ما أسمته المصادر الشعرية «بالفتن» وهي تسمية لها دلالتها التاريخية إذا ما ربطنا بينها وبين الفتن، التي شهدها المجتمع المدني في العصر الإسلامي الأول.

وأشهر هذه الفتن ثلاث: وقعت الأولى منها سنة ١١٣٤هـ، وتسمى بفتنة «العهد»، والثانية في سنة ١١٤٨هـ، وتسمى بفتنة «بشير أغا» الذي كان

حاكما من حكام المدينة في تلك الفترة، والثالثة في سنة ١١١٥هـ، وهي فتنة «عبدالرحمن أغا الكبير».

هذه الحوادث جميعها لم تتعرض لها ـ بالتفصيل ـ المصادر التاريخية وربما كان ذلك راجعا إلى ضياع مؤلفات ذلك العصر، التي كانت تحتفظ بها بعض المكتبات الخاصة في المدينة. ولربما افتقدنا المؤرخ ـ نفسه ـ للظروف السيئة، التي كان يمر بها المجتمع ـ آنذاك ـ إلا أننا لم نفتقد الشاعر الذي عمل على تطويع القصيدة الشعرية لمقتضيات العصر، ويبتعد بها عن الموضوعات المبتذلة، التي كانت سمة من سمات بعض الإنتاج الشعري لفترة العصر العثماني، أو بعبارة أخرى: وجدت الملكة الشعرية القوية، فكانت عينا تسجل، وأذنا تسمع، ولسانا ينطق.

لقد كان السيد جعفر البيتي ذلك اللسان الذرب، الذي وصف تلك الفتن، فجاء وصفه مليئا بالصور الشعرية الرائعة، التي يمكننا من خلالها معرفة ما كان يزعج ذلك المجتمع الآمن، ويقض مضجعه.

** وقبل أن نختار ملحمة من ملاحم شاعرنا المذكور، لنتعرف من خلالها على الحالة السيئة، التي وصل إليها الوضع الاجتماعي في المدينة، ولندرسها دراسة تحليلية نتلمس من خلالها تلك الوسائل الفنية التي استخدمها الشاعر في عمله الشعري، ومدى نجاحه في هذا الجانب التطبيقي الهام، قبل أن نختار المثال الذي سوف نخضعه لهذه الدراسة، سوف نذكر نبذة موجزة عن جميع الملاحم، التي شكلت مصدرا رئيسيا لدراسة الجانبين التاريخي والأدبي، في المدينة المنورة، في حقبة هامة من أحقاب تاريخنا العلمي والثقافي في الجزيرة العربية.

الملحمة الأولى: التي أبدعها الشاعر «البيتي»، تحت تأثير أحداث فتنة ١١٣٤هـ ـ ١٧٢١م، وتتكون هذه الملحمة من أربعة وتسعين بيتا، من بحر الكامل، ويفتتح الشاعر ملحمته هذه قائلا:

المجد تحت ظلال سمر الذبل
وظبا القواضب والجياد القفل
الموريات العاديات ضوابحا
الصامتات الزافرات الجفل

والخوض في غمرات بطنان النوى
يوم التصادم في القتام المسبل
وتواتر العزمات في طلب العلا
والفوز في أقصى فيافي الهوجل
والفخر ما ترك الأعادي خشعا
رفل المحازم كالجياد العزل
بين القنا وورود أحواض الردى
لقوا العلاقم في تراقي الحوصل
لا عاش من ترضى المذلة نفسه
طوعا، وعن شأو المفاخر يأتل
تعست حياة لا تشاب بعزة
غبراء بين مهابة وتذلل
العز أجمل ما اقتناه أولو النهى
والذل بالأحرار ليس بمجمل(٣)

الملحمة الثانية: التي أبدعها الشاعر «البيتى» تحت تأثير أحداث فتنة سنة ١١٤٨هـ ـ ١٧٣٥م، وتتكون من أربعة وستين بيتا من بحر الطويل، وقد افتتحها الشاعر قائلا:

قفوا تنظروا آثار ما صنع الظلم
وجوسوا خلال الدار تنبيكم الأكم
قفوا بالرسوم الدارسات فربما
تحققتم منها وما نطق الرسم
قفوا نشتكي ما قد أصاب فإنه
عظيم، وإن الأمر حادثه ضخم
على كل دعوى فى الظلامة حجة
يصدقها التحريف والهدم والردم

ومنها أيضاً:
سلوا فلسان الحال من كل مسلم
أصيب ببلوى، عنده خبر جم

سلوا عن حديــث الابــتــلا من بلى به
وأولى بنـعــت السقم من مســه السقم

سلوا كل درب بالمــديــنــة ما الذي
لقــيــنــا، فعــنــد الدار من أهلهــا علم

سلوهــا عن الهتــك الذي قد أصــابهــا
قريبــا، فمن لقيــاه في وجههــا وشم(٤)

الملحمة الثالثة التي أنشأها الشاعر تحت تأثير فتنة سنة ١١٥٥هـ ـ ١٧٤٢م، وتتكون من مائة وثلاثة وستين بيتا من بحر البسيط، وسوف نرجىء الاستشهاد، أو الحديث عنها، لأنها الملحمة التي سوف نختارها كمثال لدراستنا الفنية عن قصيد الملحمة، وهذا موضوع الحلقة القادمة من هذه الدراسة ـ بتوفيق الله.

الاحالات:

(١) السيد جعفر البيتي العلوي السقاف، ولد في المدينة سنة ١١١٠هـ ـ ١٥٩٨م، من أشهر شعراء الجزيرة العربية في فترة القرن الثاني عشر الهجري، لا يزال ديوانه الشعري مخطوطا، وتوجد منه نسخ في مكتبة عارف حكمت بالمدينة، ومكتبة المدينة العامة، وطوبقبو سراي باستانبول، وبمكتبة المرحوم السيد عبيد عبدالله مدني.
انظر ترجمته في «تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من انساب «لعبدالرحمن الانصاري، تحقيق محمد العروسي المطوي. تونس، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، ص ٧١.
وفي هدية العارفين، لإسماعيل البغدادي، استانبول ١٩٥١م، ج ١، ص ٢٥٦، وفي الشعر الحديث في الحجاز لعبدالرحيم أبي بكر، القاهرة ١٣٩٧هـ، ص ٦٩ـ٧٤.

(٢) انظر ترجمته في «فوات الوفيات» والذيل عليه لابن شاكر الكتبي، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت ١٩٧٤م، ج، ص: ٣٣٠، وفي «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» ليوسف بن تغري بردي، (القاهرة) ج ٦، ص: ٢١٥، والاعلام، لخير الدين الزركلي، بيروت، ١٣٧٦هـ، ج٦، ص: ٥٤.

(٣) الأخبار الغريبة في ذكر ما وقع بطيبة الحبيبة، للسيد جعفر بن حسين بن يحيى هاشم الحسينى المدني، (مخطوط) ص: ٤، وهو الجزء الأول «دراسة وتحقيق» من رسالة تقدم بها الكاتب لجامعة مانشستر بالمملكة المتحدة لنيل درجة الدكتوراه في عام ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

(٤) المصدر السابق: ص ٢١.

(٣)

** أوردت ـ في الحلقة الثانية: من هذه الدراسة ـ نبذة موجزة عن جميع الملاحم الشعرية، التي شكلت مصدرا رئيسيا لدراسة الجانبين: التاريخي، والأدبي، في حقبة القرن الثاني عشر الهجري، ووعدت بدراسة تحليلية للملحمة الثالثة التي أنشأها الشاعر جعفر البيتي العلوي السقاف. تحت تأثير أحداث فتنة سنة ١١٥٥هـ ـ ١٧٤٢م. وتتكون الملحمة من مائة وثلاثة وستين بيتا من بحر البسيط.

وسوف نوطىء للدراسة التحليلية التي سوف تحاول الكشف عن الجوانب الفنية للملحمة ـ بنبذة قصيرة عن الوضع الإداري في المدينة، في تلك الفترة، والذي كان سبباً وراء نشوب نوع من الحروب الداخلية التي استطاع الشعراء أن يستوعبوا أحداثها استيعابا جيدا، مكنهم من الانتقال بها من مستوى الحدث التاريخي إلى مستوى العمل الفني، كما سوف نعرض لأجزاء معينة من الملحمة نفسها.

** يبدو ـ من خلال المقدمة التوضيحية،. التي كتبها مؤلف «الأخبار الغريبة فيما وقع بطيبة الحبيبة»، لقصيدة السيد «البيتي» المذكورة ـ وجود سلطتين رئيسيتين تتنازعان إدارة شؤون المدينة (في القرن الثاني عشر الهجري).

إحداهما: السلطة العسكرية بقيادة قائد عسكري يسمى «الأغا». وتتبع هذا «الأغا» قوة عسكرية كان مقرها «القلعة» التي كانت تقوم في المنطقة التي تعرف باسم «باب الشامي».

أما السلطة الأخرى فهي السلطة المدنية، وكان يتولى شؤونها صاحب الوظيفة المعروفة باسم «مشيخة الحرم».

كما تشير المقدمة التوضيحية ـ نفسها ـ إلى حدوث مفاسد مالية من قبل بعض رجال القوة العسكرية. مما دفع بالسلطة المدنية أن تتدخل في البحث عن المشاكل المترتبة على مثل هذه المفاسد، مطالبة بإبعاد الشخصيات المتوسطة.

وكانت هذه المطالب سببا في نشوب القتال بين الفريقين، وتوسعت دائـرة هذا القتـال لتشمـل ـ في المـرحلة الأولى ـ الأفـراد العاديين في المجتمع، ثم ـ في مرحلة ثانية ـ قبيلة «حرب» التي تقطن بعض المناطق المحيطة بالمدينة، وقد اتخذت هذه القبيلة موقفا محددا من الطائفتين المتقاتلتين.

** لا بد أن يكون لمبدع القصيدة «السيد البيتي» موقف معين من الأحداث الدامية التي كان يشهدها مجتمعه، وتمتد آثارها ـ كما ذكرنا ـ إلى الأفراد الذين لا ينتمون إلى إحدى المجموعتين المتصارعتين.

ولعـل الشـاعر استطاع أن يقدم ـ مدفوعا بحبه لهذا المجتمع ـ صورة حية للحالة التي أصبحت عليها «المدينة» بعد أن شوهت وجهها تلك الحروب الدامية، ولهذا نجده يفتتح ملحمته بمقدمة يرثي بها أرض الهجرة والايمان. وهي مقدمة تتكون من ثلاثة وعشرين بيتا، يقول الشاعر في هذه المقدمة الحزينة:

بكى على الدار لمـا غاب حاميها
وجـر حكـامـهـا فيـهـا أعـاديـهـا

بكـى لطيـبـة إذ ضاعـت رعـيـتـهـا
وراعـهـا بكـلاب البـر راعـيـهـا

بكـى لمـن هاجـروا بالكـرة وارتـحـلوا
عنهـا، وكـانـوا قديمـا هاجـروا فيهـا

واهـا لكـربـتـهـا، واهـا لغـربـتـهـا
واهـا لجـائـعـهـا، واهـا لعـاريـهـا

واهـا لحـالي لمـا قمـت أنـشـدهـا
الدار أطبـق إخـراس على فيـهـا

يا دمـنـة سلبـت منـهـا بشـاشـتـهـا
وألبـسـت من ثيـاب المـحـل باقيهـا

وقـفـت فيـهـا أعـزيـهـا لكـربـتـهـا
اعـجـب على جلدي أنـي أعـزيـهـا

فمـن معـيـنـى بأحـزان يضـاعـفهـا
علي؟ من لعـيـونـي؟ من يواسـيـهـا؟

يا صاح ناد البواكي وابك أنت معي
ولا تصبرن نفسي. لا تسليها
ما مثل طيبة، ما مثل الذي لقيت
من الأسى، فبمن ترجو تآسيها
حاشا لمختلف الأملاك من غير الد
نيا وما صنعت فيها لياليها
بأبي الفداء لها من كل حادثة
لو كان ينفعها أني أفديها
وغاية الجهد أن أبكي لها أسفا
حتى تجف دموعي في مآقيها
كان التغزل في جيران ذي سلم
واليوم قد كثرت فيها مراثيها
هي المدينة أمست بعد عزتها
كسيرة، غاب عنها اليوم حاميها

ويختتم الشاعر مقدمته الحزينة بهذا البيت:

أشد دار خرابا لا عمار له
دار أتى هدمها من كف بانيها

لقد أنشد «البيتي» قطعة شعرية تتردد ـ في مقاطعها ـ عبارات البكاء والحزن، وكأنه يبحث ـ من خلال هذه العبارات ـ عن أجوبة لأسئلته الحائرة.

فهل كان الشاعر يطمح ـ من خلال هذه المقدمة البكائية ـ إلى إثارة انتباه السلطات العثمانية، التي كانت مشغولة بهمومها الخاصة عن مثل هذا الوضع السيىء، الذي أصبح المجتمع المدني يعايشه طيلة قرن كامل من الزمن؟ أم أن الشاعر الذي كان يعرف ـ مسبقا ـ بموقف السلطات المحلية وغيرها، البعيد ـ كما يصوره الشاعر ـ عن أي سمة من سمات التعاطف والتجاوب مع آلام المواطن، الذي كان يصطلى ـ وحده ـ بآثار تلك المشاكل الاجتماعية، والتي عملت على إضعاف نفسيته، وأبعدته عن دائرة العمل والانتاج.

فكان ـ عليه ـ أي على الشاعر ـ أن يبحث عن القارىء، أو المستمع، خارج إطار السلطة، ذلك الفرد المسلم الذي كانت تفصله

المسافات عن هذه الأرض المقدسة، ولكنها تعيش في وجدانه، ذلك الوجدان، الذي تغذى بأحاديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم - الداعية إلى احترام قدسيتها، وشد الرحال إلى مسجدها، وعدم التورط في إيذاء أهلها.

ولعل الشاعر نجح في إيصال صوته - عبر هذه القرون الطويلة - إلينا وتبقى مصداقية ما كان يريد أن يبلغه بصوته الشعري أمراً آخر يحتاج منا إلى البحث عن قرائن أخرى تؤيده أو تنقضه، وخصوصا أن الشاعر يشير - في ملحمته - إلى استخدام جماعات القتال للحرم النبوي الشريف، كمنطلق لهذه الحرب الآثمة التي يبدو أنها لم تحترم مقتضيات المكان والزمان.

يقول الشاعر في ذلك:

لا جمعة، لا صلاة، لا أذان بها
إلا البنادق ترمى في نواحيها
فصاحت الناس شرع الله وابتدروا
إلى الخصومة قاصيها ودانيها
وبادروا مجلس القاضي لينظر في
فصل القضا ولنار الحرب يطفيها
فصدر الحاكم الشرعي نحوهم
رسالته تقتضى الدعوة وتحويها
فلم يردوا خطابا عن رسالته
إلا الرصاص جوابا في حواشيها
وترسوا مسجد الهادي، وثار به
بين الفريقين حرب لست أحكيها
فيا لها زلة منهم وفاقرة
جاءت على رغم مفتيها وقاضيها

لقد طغى صوت الحرب على صوت العقل والحكمة، فلم يستمع المحاربون إلى قول الشرع في القضايا، التي كانت سبباً في ذلك القتال، الذي احتدم، وخلف وراءه دماء تراق، ونفوساً تتألم.

بل كان على المجتمع - أيضا - أن يقع تحت تأثير طائلة النزوات الشخصية المدفوعة بإغراءات السلطة، كان على الناس أن يتفرغوا لهذه

الحرب ستة أشهر أخرى، فلربما كان عند أمير الحاج الشامي، الذي تعود الناس فصله في القضايا المعضلة، حل شاف للمأساة، التي ظلوا يعانون منها ردحاً من الزمن.

وعندما ضاقت الحيلة بهم، لم يجدوا بدا من أن يقارنوا مأساتهم تلك بالمآسي الأخرى، التي شهدتها الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل. وتلك المقارنة، التي يعقدها شاعرهم «البيتي» تعكس لنا دلالات عديدة منها؛ قدرة الشاعر على قراءة التراث قراءة واعية، واستخدامه له استخداما موفقا في الربط بينه وبين الحاضر المأساوي، الذي كان يعيشه إنسان تلك البيئة. في القرن الثاني عشر.

ثم نلمس - أيضا - أن الشاعر قصد من وراء هذا الربط بين الصور المتشابهة. في الماضي والحاضر، تنبيه الدولة العثمانية إلى النتائج المترتبة على استمرار ذلك الصراع في مجتمع المدينة من حيث تأثيره - سلبيا - على مسيرة العثمانيين الذين وثقوا ارتباطهم - في بداية الأمر - بتعاليم الدين الإسلامي، واحترام مقدساته، والعطف على رعاياه.

** لقد قال لهم - أي للعثمانيين - ما سوف يسمعونه، بعد قرن من الزمن، في القرن الثالث عشر الهجري - من شاعر آخر من شعراء المدينة وهو «إبراهيم الأسكوبي» الذي نبه الدولة العثمانية إلى المخاطر العظيمة التي تحيط بها من جراء بعدها عن العقيدة الإسلامية، وارتمائها في أحضان الغرب.

فماذا قال جعفر البيتي؟

يا للكبائر من أدعو فيسمعني
حتى أصرح عنها أو أكنيها

من للمدينة إن غصت بريقتها
ومن يجيب نداها، من يلبيها؟

ما أفقر الصيد إلا بعد مسلمة
أعطت محاسنها الدنيا لماضيها

مصيبة عرضت للمسلمين غدت
عن «كربلاء» و «يوم الدار» تلهيها

عادت لنا سيرة التيمور في حلب
أيام صبيانها شابت نواصيها

ويـومــه وهــو في بغــداد يهــتــكــهــا
ويــوم جنــكــيــز بالتــاتــار يرمــيــهــا
وبــخــت نصــر من قبــل الذي ذكــروا
في مصــر والقــدس تقــريبا وتشبيهــا
ويــوم تهــمــاز ما أدراك ما صنــعــت
في شاه جهــان المــوالي مع مواليهــا
شأن عظيم مضى في الجــور أعــظمــه
شأن المــديــنــة من أيــدي شوانيهــا
حوادث ما رآهــا «دانــيــال» ولا
قصــت ملاحــمــه شيئــا يســاويــهــا
يا شدة ليس إلا الله يكــشــفــهــا
وغــمــة ليس إلا الله يجــليــهــا
أين الحجــاز - وأين الروم تسمــع لي
صوتي، إذا قمت من كربي أنــاديهــا؟
يا آل عثــمــان عيــن في ممــالــكــكــم
مطروفــة، لطمــتــهــا كف واليــهــا
عيــن لدولتــكــم، عيــن لديــنــكــم
قد كان لولا دفــاع الله يعــمــيــهــا
أمــنــتمــوهــا فضــاعت عنــده سفهــا
ويــل الأمــانــة ممــن لا يؤديــهــا
نمــتــم ولا نوم عبــود الذي ذكــروا
عن المــديــنــة، حتــى قام ناعــيــهــا
أحــوالنــا علمــتــهــا الصين واعجــباً
من كان يمــنــعــهــا عنــكــم ويثــنيهــا
تالله لو كان هذا الديــن مبــدؤه
على التــســاهــل والإغــفــال تمــويهــا
ما صدق الرســل في الدنيــا مصــدقهــا
ولا جبــي ساحــة الإفــرنــج جابــيهــا
سلوا ففــي كي قبــاد الفــرس معــتبــر
يغــنــي الملوك إذ شاءتــه تنــبــيــهــا

وأيــن تلك من الدار التــي شرفــت
على المــمــالك إعــظامــا وتــنــزيــهــا
ما أحــوج الأرض للفتــح الجــديــد فقد
عم البــلا وطغــى طوفــان عاصــيــهــا
من باب مصــر إلى بصــرى إلى عدن
إلى العــراق يمــانــيــهــا وشــامــيــهــا
ومــن سواكــم وعــيــن النــاس ترقــبــكم
قد وجــهــوا لكــم الآمــال توجــيــهــا
بخــدمــة المصــطفى أســلافكم شــرفت
على المــلوك، وهــنــاهــا مهــنــيــهــا
تمــيــمــة علقــت في جيــد دولتــكــم
تذب عنــهــا أعــاديــهــا وتــحــمــيــهــا
عضــوا عليهــا وصــونــوها، فإن سقطت
تفــزعــت، وغــدت لا شيء يشــفــيــهــا
وإن تروا حادثــا في الدهــر أو قلقــا
من العــدا فهــو من عقــبى تنــاسيهــا

لم يختم الشاعر قصيدته إلا بعد أن باح لنا بتلك الأحاسيس الرقيقة، التي تحملها نفسه عن البلد الذي أحب، ووضع ـ أمامنا ـ كل تصوراته لما يجب أن يكون عليه مسؤولية الحاكم من حيث التيقظ والقوة حتى لا تفقد الدولة هيبتها، وتصبح مطمعا لأعدائها الذين يتربصون بها، وهو ما حدث بعد أكثر من قرن من الزمن، عندما تقاسم الإفرنج ميراث الدولة العثمانية، وكان ذلك نتيجة طبيعية للتساهل والتغافل، الذي صاحب امتداد الدولة في مناطق كثيرة ومتباعدة.

ولم يفرغ السيد «البيتي» من ملحمته إلا بعد أن سكب بين سطورها نفسا شعريا جميلا، قوامه موهبة الشاعر القوية. وثقافته التراثية الواسعة. ويأتي ـ في مقدمتها ـ العبارة اللغوية، التي وُفِّقَ في تطويعها لتكون وسيلة نطل ـ من خلالها ـ على أحداث التاريخ، دون أن نفقد استمتاعنا بروائها الشعري، وسوف نفرغ لدراسة ذلك في الحلقة القادمة ـ إن شاء الله ـ عند دراسة البناء الفني لقصيدة الملحمة.

(٤)

البناء الفني لقصيدة الملحمة

(١)

** لقد استخدم الشاعر السيد البيتي عدداً من الوسائل الفنية، في ملحمته التي استعرضنا ـ في الحلقة السابقة من هذه الدراسة ـ الأجزاء المكونة لبنائها: وهدفنا ـ هنا ـ هو الإشارة إلى تلك الوسائل، ومدى نجاحه في تطبيقها ضمن إطار عمله الفني.

عندما نوجه اهتمامنا إلى الطريقة التي اهتدى إليها الشاعر في اختيار كلمات قصيدته، يجب أن نأخذ في اعتبارنا أنه ـ أي الشاعر ـ كان يسعى، من خلال ملكاته الشعرية، أن يبلغ مستوى معينا في تصوير حجم المشاكل المعقدة، التي كان يعاني منها مجتمع المدينة المنورة، في القرن الثاني عشر الهجري، ولهذا فهو ـ في البيت الأول من افتتاحية ملحمته ـ يشير إلى المدينة بكلمة «الدار» حيث يقول:

بكى على الدار لما غاب حاميها
وجرَّ حكامها فيها أعاديها

مشبها البلدة بالدار، التي تستحق البكاء بسبب غياب صاحبها أو حاميها ثم نراه ينعتها ـ في البيت الثاني «بطيبة» ـ وهو اسم من أسمائها، الذي اكتسبته بعد هجرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ربوعها، وحيث بدأت تتشكل ملامح تاريخها الإسلامي المتمين:

بكى لطيبة إذ ضاعت رعيتها
وراعها بكلاب البر راعيها

وكأنه من خلال هذا الاسم «طيبة» يرسم لنا صورة الأمن والسلام، الذي كانت تعيشه البلدة على مر العصور والأزمان، أصبح ـ فجأة ـ معرضا للخطر والتغيير بسبب نوع غريب من الأعداء، وهو يلمح ـ فقط ـ إليهم دون تصريح بكلمة «راعيها» وقد أشرنا ـ في الحلقة السابقة ـ إلى أن مصدر السلطة في

المدينة كانت تشكله مجموعة الأغوات والحامية العسكرية التركية: وهم من ينعتهم «بالأجانب» في موضع آخر من القصيدة، حيث يقول:

سـوسـوا البلاد بعين من نفوسـكم
دعوا الأجانب. أعطوا القوس باريها

وكلمـات راعي «ورعيـة» التي استعملها الشاعر ـ في البيت السابق ـ تشكل لنا ـ بصورة رمزية ـ صورة شعرية للسكان الآمنين، الذين وقعوا في شراك عدوين، أحدهما من الداخل، والآخر من الخارج.

وعندما نأتي إلى البيت السادس من مقدمة القصيدة، والذي يقول فيه:

يا دمـنـة سلبـت منـهـا بشـاشـتهـا
وألبـسـت من ثيـاب المحـل باقيـهـا

نجد الشاعر يدعو مدينته باسم «دمنة» والجملة التي عقبت كلمة «دمنة» توضح لماذا استعمل الشاعر هذه الكلمة الدالة على الأثر، لقد فقدت البلدة سمات فرحها أو سرورها، أو تم اغتصاب مظاهر الحياة فيها لتحل محلها صورة أخرى ـ كما عبر الشطر الثاني من البيت وهي صورة البؤس والشقاء والحرمان، ولقد كان لبناء الفعل للمجهول في قوله: «سلبت» و «ألبست»، دور في تكثيف الصورة الشعرية، وما ترمز إليه من إيحاءات، كان يهدف الشاعر إلى التـأثيـر بهـا في نفـوس قارئيه عن الوضع السيء للبلدة، بعيدا عن المباشرة والتقريرية.

(٢)

** لقد كان «البيتي» واعيا بأهمية العبارة المجازية، ودورها في التأثير على نفس القارىء، إلا أن نوعية هذه العبارة من حيث قوتها وأصالتها هي التي تجعلنا نصل إلى رأي في تحديد شاعرية المبدع. كما يعبر عن ذلك النـاقـد «هيـربيـرت رييد» (HERBERT READ) في مجموعة مقالاته النقدية المعـروفـة، وهـذا يدفعنا إلى أن نقف عند الأسلوب الشعري الذي عمل الشاعر، من خلاله، على البرهنة على غفلة الحكام العثمانيين.

لقد نأى الشاعر عن المباشرة في خطابه الشعري لهؤلاء الحكام واعتمد

على الصـورة البـلاغيـة، التي تكتفي بتصوير الأثر عن طريق ترك الحرية للقارىء لاستنتاج الحقيقة، أو الحكم على القضية التي كان يسعى الشاعر ـ بوعيه العميق ـ أن يبرهن عليها، من خلال الصورة البسيطة المنتزعة من التجربة الإنسانية.

يقـول الشـاعر رامزاً إلى تغاضي العثمانيين عن المفاسد، التي كانت تتعرض لها البلدة الطاهرة:

يا آل عثـمـان عيـن في ممـالكـكـم
مطروفـة لطمـتـهـا كف واليـهـا

(٣)

** ينـوع الشـاعـر في وسـائله الفنية، التي أحكم من خلالها البناء الشعري لقصيدته فهو إضافة إلى وعيه بأهمية العبارة المجازية والبسيطة في الوقت نفسه، في رسم أبعاد الأجواء السياسية والاجتماعية للمدينة في تلك الفترة، نجده ـ أيضا ـ لا يغفل عن الموروث الشعري، ذي الصلة الوثيقة بالتاريخ الإسلامي للبلدة، فهو يشير إليه عن طريق استعارة بعض عباراته أو تضمينها، ولكن هل هو التضمين غير الواعي؟ أو هي الاستعارة الزائفة التي لا تتعدى الصور والأشكال؟

أعتقد أن الشاعر وفق إلى ـ حد ما ـ في أن يستفيد من بعض الأساليب الشعرية القديمة، وذلك لوعيه المتمثل في حسن استخدامه لها. فلئن قال الشاعر «البوصيري» شعرا يتشوق فيه إلى ديار الإسلام، ويتغنى بربوعها في وقت كانت تنعم هذه الديار ـ فيه ـ بالسلام والأمن:

أمـن تذكـر جيـران بذي سلم
مزجـت دمـعـا جرى من مقـلة بدم

فإن الشعر في عهد «البيتي» يتوجه لرثاء المواطن، التي كانت تتجاوب بكل طمأنينة وسرور مع شعر المدح والحنين.

يقول «البيتي» موضحا الفرق بين عصرين مختلفين من خلال الفرق بين نوعين متغايرين ـ أيضاً ـ من الشعر، شعر قاله الأقدمون غزلا، وشعر يقوله شاعرنا رثاء:

كان التــغــزل في جيــران ذي سلم
واليــوم قد كثــرت فيــهــا مراثــيــهــا

(٤)

** ومن وسائل الشاعر الفنية: سعيه في أن يتمثل بحوادث التاريخ، وهو تمثل يربط فيه الشاعر بين الوضع الذي آلت إليه البلدة في عصره، وبين الوضــع الذي سبق أن مرت به في عصور سابقة، أو هو تمثل يحاول من خلاله - وبطريق غير مباشر - أن يعقد مقارنة بين الحكام، الذين يتغافلون - عن عمد أو غير عمد - عن مجريات الأحداث في المدينة، وذلك التغافل الذي أقــدم عليــه حكام سابقون، مما تسبب في ضياع مقاليد الأمور من أيديهم، وهو نفس المسار الشعري الذي سلكه الشاعر من حيث بعده عن المباشرة في الصياغة الشعرية، أو في الربط بين الأمور ومجريات الأحداث، محبذا في ذلك الأساليب الأكثر قدرة في التأثير في القارىء أو الشخص المسؤول على حد سواء.

ولا أظن أن الشاعر لجأ إلى ذلك خوفا ورهبة. ولكن أميل إلى أن وعيه وعمق ثقافته، دفعاه لأن يختار لعمله الشعري من الأساليب ما جعله متميزا عن كثير من الأعمال الشعرية، التي انتجها شعراء العصر العثماني.

يقول الشاعر في معرض تصويره للأهوال، التي شهدتها المدينة من خلال أحداث القرن الثاني عشر، ويقارنها في الوقت - نفسه - بتلك الأحداث التي جرت على أرض المدينة كيوم مقتل الخليفة «عثمان بن عفان» رضي الله عنه، في العصر الإسلامي الأول، وهو يوم الدار، أو في بلاد الإسلام الأخرى، كالقدس، وبغداد، وكربلاء، وحلب، ومصر:

مصــيــبــة عرضــت للمــسـلمين غــدت
عن «كــربــلاء» و «يــوم الدار» تلهيهــا
عادت لنــا سيــرة «التيمــور» في حلب
أيــام صبــيــانــهــا شابت نواصيــهــا
ويــومــه وهــو في بغــدد يهــتــكــهــا
ويــوم «جــنــكــيــن» بالتــاتــار يرميهــا

وبـخـت نصـر من قبـل الذي ذكـروا
في مصـر، والقـدس، تقـريبـا وتشبيهـا

(٥)

** إضافة إلى قدرة الشاعر على قراءة التاريخ الإسلامي قراءة واعية مكنته من استخدامه استخداما موفقا ـ فإنه عمل على تدعيم بناء ملحمته الشعرية ـ أيضاً باستخدام المصطلحات الإسلامية الخاصة بأمثال: شرع الله، أصحاب بدر، الأنصار، أو ذكر بعض الأماكن، التي تثير شعورا دينيا خاصا عند القارئ المسلم. كمنبر الرسول صلى الله عليه وسلم وروضته الشريفة:

وأصـبـح الحـرم العـالي وروضـتـه
كالجـبـخـانـة بالبـارود يحـشـيـهـا

كما أن الشاعر انطلاقا من ثقافته الدينية، عمل على تضمين قصيدته معاني بعض الآيات القرآنية، عند حديثه عن سمات أولئك المعتدين على حرمة المدينة ومسجدها:

وجـاءهـم كل من في قلبـه مرض
يسـعـى بعـلتـه معـهـم يداويـهـا

وهو المعنى المستفاد من قوله تعالى: [**في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا**](1)

(٦)

** وإذا كانت ثقافة الشاعر الدينية انعكست على أبيات هذه الملحمة الشعرية، فإن ثقافته بالأدب العربي، أو اللغة الفارسية، كانت واضحة ـ من خلال تضمينه لبعض الأمثال العربية والفارسية ـ فعندما أراد ـ مثلا ـ أن يصور غفلة الحكام العثمانيين، وتغاضيهم عن حماقات ولاتهم في الأرض المقدسة، نجد ذاكرته تلجأ إلى المثل العربي القائل: «نام نومة عبود أو «أنْوَمُ من عبود» ويضمنه قصيدته قائلا:

نمـــتـــم ولا نوم عبـــود الذي ذكـــروا
عن المــديـــنـــة حتـــى قام ناعـــيـــهـــا

وعند تعريضه بالفئة، التي عمل الشاعر ـ من خلال ملحمته ـ على نقد تصرفاتها السلبية تجاه المدينة، ومقارنتها بالفئة الناجية التي دافعت عن البقعة المقدسة، فإننا نجده يستعمل المثل الفارسي: «نمك حرام» أي: الشخص الذي ليس جديرا بالمعاشرة، والمخالطة، وليس مكانا للثقة والاعتماد، وكان تضمينه لهذا المثل على النحو التالي:

هم المـــحـــامـــون دون الدار لا فئـــة
«نـــمـــك حرام» وتـــكـــفـــيـــهـــا مخـــازيـــهـــا

(٧)

*** بعد هذه الدراسة التي استعرضنا فيها مضامين العمل الشعري للسيد جعفر البيتي، وحللنا جوانب من البناء الفني لهذا العمل، مراعين أهميته ضمن إطار الأعمال الشعرية الأخرى، في فترة القرن الثاني عشر الهجري ـ الثامن عشر الميلادي، وكذلك صلته بالأعمال الأخرى، التي ربما شابهته في اتجاهاتها أو بنائها، سوف نبتدىء بطرح السؤال الآتي:

هل إبداع السيد «البيتي» في ملحمته الأخيرة يدخل ضمن إطار الأعمال الشعرية الطويلة؟

إذا ما أخذنا في الاعتبار موضوع القصيدة كأساس في تحديد طول القصيدة، فإنه اعتمادا على رأي الناقد الخليل بن أحمد الفراهيدي، هناك عدد من الموضوعات التي تكون ملائمة لمعالجة شعرية طويلة، مثل موضوعات الترهيب والترغيب، أو الموضوعات التي تستوعب فكرة حسم الخلافات الناشئة بين القبائل، مثل قصائد زهير بن أبي سلمى، والحارث بن حلّزة.

اعتمادا على هذا المقياس الخليلي، فإنه يمكننا إدخال قصيدة السيد البيتي ضمن الإطار الملحمي، لأن موضوعها يتناول أحداث التاريخ الاجتماعي للمدينة المنورة، في فترة القرن الثاني عشر الهجري، حيث حاول

الشـاعر من خلال قصيدته أن ينبه السلطات المسؤولة في استانبول، أو الحجـاز للقضاء على الخلافات الموجودة بين فصائل معينة في المجتمع وإعادة سمة الإسلام والطمأنينة إلى المجتمع.

النـاقـد الإنجليـزي (HERBERT READ) هيـربيرت ريد، يعتبر المقياس الكيفي أساسا للتفريق بين القصيدة الطويلة، والقصيرة، التي غالبا ما تدعى غنائية (LYRIC) فهذه الأخيرة تجسم ـ من وجهة نظر الشاعر ـ موقفا عاطفيا فرديـا أو بسيـطا، قصيـدة تعبـر مباشرة عن إلهام أو حالة مستمرة، أما القصيدة الطويلة فهي التي يمكن أن تعبر عن فكرة واحدة غالبة تكون ـ في ذاتها ـ وحدة عاطفية.(٢)

وإذا ما أخذنا قصيدة السيد البيتي، التي نحن بصدد دراستها، نجد الشاعر قد خصصها لموضوع واحد، وهو طبيعة الخلاف في مجتمع المدينة خلال حقبة القرن الثاني عشر الهجري، وهذا الموضوع يكاد يسيطر على تطور القصيدة الطبيعي، من خلال مراحل الحدث، ولقد استطاعت القصيدة استيعاب هذه المراحل استيعابا جيدا.

وهذه المراحل التي يمكن ملاحظتها في البحث عن العوامل التي كانت خلف نشوب القتال بين الأطراف المتنازعة ثم ما كان من أمر المفاوضات بين هذه الأطراف، ثم تطور الأمر إلى القتال المفاجىء أثناء الليل، ثم كيف تم الاتصال بين شيخ الحرم، وشيخ قبائل حرب، والذي أدى إلى دخول هذه القبيلة الى المـدينـة لمساندة هذا الحاكم، الذي جعل من الحرم النبوي الشريف مركزا لقيادة الهجوم ضد أعدائه من الأطراف الأخرى.

وعلى الرغم من الموضوعات المتعددة التي عالجتها القصيدة إلا أنه من الواضـح أن التجـربـة الشعـرية، التي تنتظم أجواء القصيدة هي تجربة الغضب واليأس، وهذا ما يجعلنا نصل إلى القول بأن قصيدة السيد البيتي هي قصيدة طويلة بالمعيار الشعري الحديث(٣).

في الحلقـة الأولى من هذه الدراسـة، التي خصصتها لمناقشة تعريف الملحمـة بين الأدبين العـربي والأوروبي، رأينـا أن المستشرق «د. س. مرجليـوث» يدعى أن القصائد التاريخية الملحمية في الأدب العربي تمت صياغتها في بحر الرجز، لأنه الوحيد الذي يتلاءم مع هذا الفن الشعري.(٤)

التحليل العروضي لقصيدة السيد البيتي يجعلنا نؤكد أن الشاعر نأى بقصيدته عن هذا البحر ـ أي: الرجز ـ واختار بحرا شعريا آخر لصياغتها، وهــو: البحــر البسيط، وهو بحر يتسع ـ مثل الطويل ـ للحماسة والتشابيه والاستعارات، وسرد الحوادث.(٥)

ولقد استطاع الشاعر البيتي بلوغ مستوى شعري جيد في وصف حوادث الحقبــة التي عاشهـــا، دون الهبــوط إلى المستوى النظمي، الذي غالبا ما يصاحب مثل هذه التجارب.

لقد كان الجانب الموسيقي المتناغم هو الذي يلامس أذن القارىء خلال قراءته لتفاصيل هذه الملحمة.

وفــوق هذا فقد استطاع الشاعر أن يستخدم أدواته الفنية، بعيدا عن سمات الصنعة والتكلف، وكانت هذه الأدوات عاملا هاما تساعد القارىء في التحليق في الأجواء التي أراد له الشاعر أن يرتفع إليها، وأن يتخيل ـ بكل بساطة وتلقائية ـ حوادث مضى عليها حوالي قرنين ونصف من الزمن. إلا أن الشاعر لم يسلم من الوقوع في بعض الأخطاء الفنية، وخصوصا من حيث انصياعه ـ أحيانا ـ للضغوط الاضطرارية، التي تشكلها القافية، وهو أمر غير مستبعد في قصيدة تتكون أبياتها من مائة وثلاثة وستين بيتا.

تظهر ملحمة السيد البيتي: كقصيدة بلغت مستوى جيدا من الصياغة اللغــويــة، والخصائص التركيبية، واستطاعت أن تصور لنا بهذه المقدرات الفنية الحياة الإنسانية في صراعها الأبدي للحفاظ على القيم الأصيلة، في مجتمع تعرضت جوانب الحياة فيه لنوع من التصادم المنفعي أو الشخصي، ولكنه التصادم الذي يتبعه الاستقرار، ويتميز ـ بعد معركته ـ الجيد من الرديء.

لكن بناء القصيدة الملحمي عند السيد البيتي لم ينتج عنه ظهور بطل متميز عن بقية الأبطال، من حيث قوته أو شجاعته، وذلك من خلال الأحداث التي عرضتها القصيدة، ولعل ذلك ناتج من أن القصيدة كانت ترصد أحداثا واقعيــة، وليست أحــداثاً متخيلة أو أسطورية وإذ كان تشكيل صورة بطل مُتميِّز،(٦)من خلال أحداث القصائد الملحمية في الآداب الأخرى، يعد أمراً أساسيا في بناء تلك الملاحم، وتميز ملامحها. إلا أن ذلك لا يمنع القول من

إن ملحمة «البيتي» تعتبر إضافة قوية وجادة في تاريخ قصيدة الملحمة من منظور النقد العربي.

لقد كانت محاولة موفقة من «البيتي» وغيره من شعراء المدينة المنورة، في القرن الثاني عشر، وهي أن يحاولوا نفض الغبار عن هذا النوع المتميز من الشعر.

ولا شك أن المحاولة تكتسب أهميتها ـ كما ذكرنا في الحلقة الثانية من هذه الدراسة ـ أنها أتت في عصر من العصور، التي اصطلح النقاد على تسميتها بعصور الركود الفكري والأدبي، مع أنه لو توجهت المحاولات لدراسة أدب هذه الحقبة توجها جادا لتغيرت مفاهيم كثيرة لا تستند إلى أسس نقدية قوية، تحدد المسارات الأدبية والاتجاهات الشعرية تحديدا واضحاً ومتميزاً.

* * *

الاحالات:

(١) Herbert Read: Essays in Literary Criticism 2nd, ed London. 1951. P. 98

(٢) سورة البقرة، الآية ١٠.

(٣) الدكتور يوسف حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم، ط ٢، بيروت ١٤٠٣هـ، ص: ٢٥٣ـ٢٥٤.

(٤) ملحق التراث، العدد الحادي والعشرون، من السنة الحادية عشرة جريدة المدينة، الخميس ٢٣ جمادى الآخرة، ١٤٠٨هـ.

(٥) جورج غريب، سليمان البستاني في مقدمة الإلياذة، بيروت، ص ٣٤.

(٦) C.M. Bowra. Heroic Poetry, London 1952 - P.9

من معالم الفكر والأدب
في المدينة المنورة

لقد أعطت الهجرة النبوية للمدينة المنورة، وما رافقها من احتضان أهلها للعقيدة الإسلامية، وتفانيهم في الدفاع عن الإسلام ونشر تعاليمه السامية في جميع أقطار الأراضي، أعطتها كل تلك المعطيات الحضارية والخصائص الثقافية التي عرفت بها على مر العصور الإسلامية وحتى بعد أن فقدت المدينة البلد مركزها السياسي، حيث انتقل مركز الخلافة إلى دمشق أولا، ثم إلى بغداد ثانيا، فإنها لم تفقد ذلك الدور العلمي المتمثل في توجه أهل العلم والمعرفة إليها كلما احتاجوا إلى معرفة أوسع بالدين وصاحب الرسالة، وبالأحكام والحديث والسنن والتفسير وأحاديث الدعوة الإسلامية الأولى وتفاصيل الهجرة والمغازى، هذا الجو العلمي هو الذي تأسست في رحابه مدرسة المدينة برعاية **الصحابي الجليل عبدالله بن العباس** ـ رضي الله عنهما ـ وكان من روادها أيضا بعض من أبناء الصحابة الذين تخصصوا في رواية التاريخ والمغازي **ونذكر منهم**: سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي، وسهل بن أبي خيثمة المدني الأنصاري وسعيد بن المسيب المخزومي، وأبان بن عثمان بن عفان، وعروة بن الزبير بن العوام، وقد تلا هذه المجموعة الأولى جيل ثان برز فيه عدة علماء منهم عبدالله بن أبي بكر بن (ابن حزم)، وعاصم بن عمرو بن قتادة، وأبو روح يزيد بن رومان الأسدي المدني، وأبو الأسود محمد بن عبدالرحمن بن نوفل الأسدي، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري(1) ـ رضي الله عنهم أجمعين.

وسنقف في دراستنا هذه وقفات عابرة عند بعض الشخصيات الفكرية والأدبية التي اضطلعت بدور رائد في المجالات العلمية والثقافية بدءا من القرن الحادي عشر الهجري فهي الفترة التي تحتاج إلى قدر كبير من البحث والدراسة والتحليل لما أصابها من إغفال ولحق بها من نقص. وما ذلك إلا لوقوعها في فترة ما يسمى بعصور الانحطاط الفكري، مع أن الشواهد التاريخية تثبت أن المدينة ممثلة في مسجدها النبوي الشريف ظلت تؤدي

دورا هاما في نشر العلم والثقافة الإسلامية، **وليس أدل على ذلك من بروز عالم متمكن في علوم الشريعة الإسلامية وهو الشيخ إبراهيم بن حسن ابن شهاب الدين الكردي الكوراني** (١٠٢٥/١١٠٣هـ). الذي تتلمذ على أحد العلماء المجاورين بالمدينة وهو الشيخ أحمد القشاشي ثم درّس بالمسجد النبوي، وتلقى العلم عنه عدد كبير من أبناء الأمة الإسلامية، وترك ثروة علمية تقدر بما يزيد على مائة كتاب كما يذكر المؤرخ المرادي.[٢] إضافة إلى ذرية صالحة حملت العلم عنه، وكان منهم الشيخ محمد سعيد بن إبراهيم الكوراني[٣] (١١٣٤/١١٩٦هـ) والشيخ محمد أبوالطاهر الكوراني[٤] (١٠٨٥/١١٤٥هـ) وقد أخذ العلم عن هذا الأخير العلامة المجدد الشيخ ولي الله الدهلوي ـ صاحب: «حجة الله البالغة» الذي استقر بالمدينة في الفترة ١١٤٣/١١٤٥هـ، وكان ملازما طوال تلك الفترة للشيخ أبي الطاهر الكوراني.[٥]

كما حفل الحرم النبوي الشريف في القرن الثاني عشر الهجري بحلقاته العلمية المتعددة. ومن هذه الحلقات ما كان مختصا بعلم اللغة والأدب مثل حلقة الشيخ محمد بن محمد الطيب الفاسي الذي كان تلميذا من تلامذة الشيخ محمد أبي الطاهر الكوراني، ولقد كان الفاسي إماما في اللغة العربية في وقته، ومحققا متضلعاً في كثير من العلوم كما تدل على ذلك قائمة الكتب التي تنسب إليه. كشرحه على معجم القاموس، وشرح «نظم الفصيح» وشرح «كافية بن مالك» وشرح «شواهد الكشاف» للزمخشري.[٦]

كما حفل المسجد ـ في الفترة نفسها ـ بحلقات أخرى كانت مختصة بالحديث وعلومه، ومنها حلقة الشيخ محمد حياة السندي[٧] الذي تلقى علومه من مشائخ عدة يأتي في مقدمتهم الشيخ أبو الحسن بن عبدالهادي السندي[٨] والشيخ محمد أبوالطاهر الكوراني، ثم تصدى للتدريس بعد وفاة شيخه السندي، وأثمرت هذه الدروس، عن تأليفه لكتب هامة منها شرح الترهيب والترغيب، ومختصر الزواجر لابن حجر، وشرح الأربعين، ولعله من المفيد هنا أن ننقل عبارات الدكتور عبدالله العثيمين أستاذ التاريخ بجامعة الملك سعود بالرياض في كتابه (الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ حياته وفكره ـ عن الشيخ محمد حياة السندي)، أما محمد حياة السندي فكان حجة في الحديث وعلومه صاحب مؤلفات مشهورة في هذا الحقل، وكان أستاذاً لعدد

من الطلاب الذين أصبح بعضهم دعاة إصلاح أو شخصيات علمية مشهورة في مناطق إسلامية متعددة[٩] ويؤكد الدكتور العثيمين أثر الشيخين محمد ابن حياة السندي، والشيخ عبدالله بن سيف[١٠] على الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - لا بالنسبة لتحصيله العلمي فقط وإنما بالنسبة لاتجاهه الإصلاحي أيضا.

ومن علماء المدينة في هذه الحقبة المؤرخ عبدالرحمن بن عبدالكريم الأنصاري (١١٢٤/١١٩٧هـ) الذي تلقى علومه في مدرسة الحديث التي نشأت في المدينة خلال القرن الثاني عشر الهجري، حيث نعرف من ترجمته أنه تلقى العلم على الشيخ أبي الطاهر الكوراني، وأبي الطيب السندي، ومحمد بن الطيب الفاسي.

ينعته المرادي في كتابه «سلك الدرر» بمؤرخ المدينة في عصره[١١] كما يذكر عمر الداغستاني وهو معاصر له بالمدينة، أنه ألّف تاريخا جمع فيه بيوتات أهل المدينة[١٢] وعبارة المرادي على قصرها تحمل دلالة واضحة على أهمية كتاب الأنصاري المسمى «تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب» فهو كما ذكر محقق الكتاب الأستاذ محمد العروسي المطوي ليس مجرد كتاب أنساب فقط كما يدل عليه عنوانه بل هو بالاضافة إلى ذلك يصور مجتمع المدينة في القرن الثاني عشر من مختلف أوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما يمكن الدارس وبخاصة الاجتماعي من تلمس العناصر والمعطيات للدراسة والتحليل والإنتاج[١٣].

لم يذكر الأنصاري سببا لتأليف كتابه التحفة إلا أنه يشير عند ترجمته لآل الأنصاري إلى أن المؤرخ السخاوي أهمل كثيرا في كتابيه «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» و «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» من فروع هذا المجموع - أي آل الأنصاري - وذلك من قلة العلم بأصولهم وعدم تفصيلهم[١٤]، ولعل هذا ما حدا بالأنصاري أن يؤلف كتابه هذا وكتاباً آخراً في تاريخ أنساب أهل المدينة لا نعرف عنه إلا اسمه وهو «نشر كمائم الأزهار المستطابة في نشر تراجم أنصار طابة».[١٥]

والأنصاري من خلال الترجمة التي كتبها لنفسه يبدو أنه أحد أولئك العلماء الذين تجولوا في بعض البلاد العربية والإسلامية، يحدوهم في ذلك الرغبة في طلب العلم والاستزادة من معطيات المعرفة، فهو يسافر إلى بلاد

اليمن سنة ١١٧٢هـ، ويدون وقائع رحلته في كتابه المعروف باسم «قرة العيون في الرحلة إلى اليمن الميمون» كما يشير إلى اهتمامه بالأدب والشعر خاصة، وذلك عند ذكره للزيارة التي قام بها لإمام اليمن «المهدي العباسي» حيث مدحه بقصيدة بائية في سبعين بيتاً[١٦]، وهذا يؤكد ما نذهب إليه من احتكاك علماء الحرمين الشريفين ـ في تلك الفترة ـ واتصالهم بنظرائهم في البلاد العربية والإسلامية وهو اتصال كانت له ثمراته المباركة وآثاره الحسنة.

وكتاب الأنصاري ـ التحفة ـ يعتبر دليلا واقعيا على خطأ الرأي الذي ذهب إليه بعض الباحثين وخصوصا المستشرق «فرانز روزنتال»[١٧] من أن كتابة تاريخ المدينة المنورة لم تحظ بالجانب السيري، ويعتبر مؤلف الأنصاري حلقة في سلسلة من الكتب التي عنيت بتدوين تراجم رجال البلدة الطاهرة، بدءا من القرن الثامن الهجري، وكان من أهمها كتاب ابن فرحون[١٨] المعروف باسم «نصيحة المشاور وتعزية المجاور»[١٩] وكتاب «الأعلام فيمن دخل المدينة من الأعلام» للمطري[٢٠] ثم تبع هذين المؤلفين المؤرخ السخاوي[٢١] فألف كتابه «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة»[٢٢] وعني فيه بتراجم رجال المدينة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى عهد المؤلف وهو القرن التاسع الهجري.

وممن برز في المدينة من العلماء، في حقبة القرن الثاني عشر، محمد ابن زين العابدين بن عبدالله بن عبدالكريم الخليفتي[٢٣] وعالمنا هذا كما يذكر المرادي[٢٤] تلقى علومه الدينية على يد عدد من مشائخ العصر الأجلاء كالشيخ محمد حياة السندي، والسيد إبراهيم أسعد وبعد أن تكونت مقومات شخصيته العلمية أخذ في تدريس العلوم مما هيأ له بعد فترة من المراس والدربة أن يتولى وظيفة الخطابة والإمامة كما تولى منصب الإفتاء في المدينة.

أما من حيث إنتاج الخليفتي العلمي فنجد مصدرا ككتاب تراجم أعيان المدينة،يذكر أنه كان ناظماً وناثراً[٢٥] أما البغدادي[٢٦] فإنه الوحيد بين المصادر التي ترجمت له نجده ينفرد بذكر مؤلفه في تاريخ المدينة، ولا نجد ذكرا لهذا الكتاب عند معاصره عبدالرحمن الأنصاري وهو أمر غريب، فلقد عني الأخير بتدوين معظم الآثار العلمية التي دونها أصحابها إبان القرن

الثاني عشر الهجري.

أمـا كتـابه في تاريخ المدينة فهو «نتيجة الفكر في خبر مدينة سيد البشر» وهو كتاب لا يزال مخطوطا اطلعت على نسخة منه في مكتبة فضيلة الشيخ جعفر فقيه ـ أمد الله في عمره ـ وفي مقدمة هذه النسخة نجد المؤلف يذكر أنه وضع مؤلفه استجابة لرغبة قاضي المدينة وابن قاضي البلد الحرام محمد أمين أفندي ابن المرحوم صالح أفندي، الذي طلب منه أن يجمع له نبذة عن محاسن المدينة الزاهرة، وآثارها الفائقة، فكان هذا الكتاب الذي رتبه على خمسة أبواب وخاتمة:

* **الباب الأول** : في فضل المدينة.
* **الثانـي** : في فضل مسجدها الأنور وروضتها الشريفة.
* **الثالـث** : في من يُزار بها من الصحابة الأخيار.
* **الرابـع** : في مشاهدها ومآثرها.
* **الخامـس** : في فضل المجاورة بها.

وإذا كان الجانب التاريخي للمدينة قد حظى باهتمام بعض من علمائها وأدبائها. فإن الأدب وفنونه لم يهمل هو الآخر، حيث نجد الأديب عمر بن عبدالسلام الداغستاني(٢٧) يتصدى لهذه المهمة فيؤلف كتابه «تحفة الدهر ونفحة الزهر في أعيان المدينة من أهل العصر».(٢٨)

قسم المؤلف كتابه «تحفة الدهر» إلى أربعة فصول:

* **الفصل الأول** : في السادة والأشراف.
* **الفصل الثاني** : في العلماء الطيبيو الأوصاف.
* **الفصل الثالـث** : في العلماء الكرام.
* **الفصل الرابـع** : في الأدباء الفخام.

** **ويبدو أن القاعدة التي اتبعها المؤلف** في تجزئته لكتابه تستند إلى النظام الاجتماعي السائد في تلك الفترة أكثر من استنادها على مقاييس أدبية متعددة، كما أننا نلاحظ عدم قدرته على توضيح الأسس التي انطلق منها في التمييز بين أدباء الفصلين الثاني والثالث وكان بالإمكان أن يخصهم بفصل واحد ما داموا جميعا ـ حسب عبارته ـ من طائفة العلماء. ولربما كان

المؤلف في تقسيمه لفصول الكتاب مدفوعا بالرغبة في اتباع من سبقه من المؤلفين، كابن معصوم[٢٩] في كتابه «السلافة» مع أن الأسس الأدبية التي انطلق منهما ابن معصوم في ترتيبه لأجزاء كتابه تختلف عن تلك التي نجدها عند الداغستاني في كتابه «التحفة».

أشار المؤلف في مقدمة كتابه «التحفة» إلى تدهور حال الأدب في عصره، ولربما كان الأولى أن نثبت من هذه المقدمة، ما يكون دليلا عل تنبه الداغستاني لهذه القضية التي لم يشغل المؤلفون ـ حينئذ بمناقشتها.

يقول المؤلف:

مضى الزمن الذي قد كان فيه
لأهل الشِّعر عزٌّ وارتفاع
فإن الشِّعر في ذا العصر علم
قليل الحظ، ملفوظ مضاع

* * *

ولئن هُجر الأدب مليا، وأصبح نسيا منسيا، فإن لزنده وريا يلتمع سقطه، ولمزنه دقا يستدر نقطه، والمرتدي بفاخر مطارفه بين الأخوان والإقران، يشار إلى مجده وبيانه بالسلام والبنان، خصوصا أن نظم في سلك التحايف زبرجده، وسلك في قالب الظرايف عسجده.[٣٠]

** **ويرى الدكتور عبدالرحمن الشامخ** أنه على الرغم مما في إشارة الداغستاني هذه من تنبيه الى طبيعة الذوق الأدبي من صحة وسلامة إلا أن شكاته لم تكن الا استجابة لروح الحنين إلى الماضي، لما يتضمنه كتابه من نصوص مفتقرة إلى الروح الأدبية والموهبة الفنية.[٣١]

ولئن أظهر المؤلف قدرة أدبية في تدوين الإنتاج الفني لأدباء المدينة في فترة القرن الثاني عشر. فإنه استطاع ـ أيضا ـ أن يدلل على ثقافته بما عقده من مقارنات بين هذا الإنتاج وما يماثله من ناحية المعنى من إنتاج بعض شعراء العصر العباسي كأبي نواس والبحتري، وبعض شعراء العصر المملوكي مثل مجير الدين بن تميم، وصفي الدين الحلي وجمال الدين بن نباتة، وهذه الدراسة التي توصل إليها الداغستاني هي مما يزيد في أهمية

الكتاب من حيث اعتباره مصدرا رئيسيا للبحث في النواحي الفنية للشعر في تلك الفترة الزمنية، والتي يجب أن يحظى باهتمامات النقاد ودراساتهم العلمية.

وإذا كان بعض الشعـراء عبر عن بعض المشاكل الاجتماعية التي تعـرضت لها المدينة إبان تلك الحقبة كما رأينا في الأبيات السابقة، فإن البعض الآخر حاول أن يبث همومه الخاصة من خلال الشعر على أن هذه الشكـوى الذاتية كانت مرتبطة في النهاية بما يعانيه المجتمع بأكمله من مشاكل وحوادث.

يقـول الشـاعـر يوسف الأنصاري(٣٢) عندما أُجبر على الخروج من المدينة تحت تأثير بعض الحوادث الخاصة:

تصـبَّـر فعـمُـرُ النَّـائـبـات قصـيـر
ومـثـلـي على سيـر الزمـان يسـيـر
يقـيـنـي يقـيـنـي ما أظن من الردى
ويـمـنـعـنـي كيـد العـدى ويـجـيـر
ونفسي إن جاشت أقـول لهـا اصبـري
فلسـت بنـفـسـي إن عراك ضـجـور
وكـونـي على حكـم القـضـا مطمئنـة
فليس سوى ما قد قضـاه يصـيـر
ومـا محـن الأيـام إلا سحـابـة
بإبـان صيـف ساعـة وتـغـور
فمـا تغـلبـن إلا ضعـيـفـاً يقـيـنـه
ويـغـلـبـهـا ثَبْـتُ الفـؤاد صبـور

وتكشف أبيـات الشـاعر الأنصاري عن ثقافته التراثية المتمكنة فهو مجيد في اقتباس الأمثال والأبيات الشعرية وتضمينها، حتى يكسب ذلك قصيدتـه قدرا كبيرا من الإجادة والقوة، فمن الأبيات التي ضمنها بعض الأمثال العربية السائرة قوله:

فشـنـشـنـة من أخـزم قد عرفـتـهـا
وطبـعـا فإنـي للطبـاع غيـور

وقوله أيضـا:

ومـن جرب الأمـر المجـرب نادمـا

كمـا الكسعي ذي القـوس وهـو شهيـر

* ومن اقتباساته الشعرية قوله:

فلولا فراق السـهـم للقـوس لم يصـب

ولولا انـصـلات السـيف ليس يضيـر

وهذا البيت السابق هو صياغة أخرى لبيت الإمام محمد بن إدريس الشافعي ـ رحمه الله:

والأسـد لولا فراق الأرض ما افتـرست

والسـهـم لولا فراق القـوس لم يصـب

* أما البيت الذي يقول فيه:

كأن لم يكن بين الحجـون إلى الصفـا

أنـيس ولم يسـمـر هنـاك سمـيـر

فهو يذكرنا ببيت مضاض بن عمرو الجرهمي القائل:

كأن لم يكن بين الحجـون إلى الصفـا

أنـيس ولم يسـمـر بمـكـة سَـامِـرُ

الاحالات

(١) لمزيد من التفصيل عن مدرسة المدينة انظر: شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون ط ٣، بيروت، ١٩٨٣، ج ١، ص ١٤٩ـ١٦٨.

(٢) **محمد خليل المرادي**: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، مصر، ١٣٠١هـ، ج ١، ص ٥ـ٦.

(٣) **المؤلف مجهول**: تراجم أعيان المدينة المنورة في القرن الثاني عشر الهجري ـ تحقيق الدكتور محمد التونجي، جدة ١٤٠٤هـ ـ ص ١٠٦.

(٤) **عبدالرحمن الانصاري**: تحفة المحبين والاصحاب فيما للمدنيين من انساب تحقيق محمد العروسي المطوي، تونس ١٣٩٠هـ ـ ص ٤٥٩.

(٥) A. H. Jones, art, - (Kurani) Encyclopaedia of Islsam, Leden 1954, Vol. V P. 43.

(٦) تراجم اعيان المدينة ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٧) توفى بالمدينة في ٢٦ صفر سنة ١١٦٣هـ ـ انظر: تراجم اعيان المدينة ص ٦٨.

(٨) توفى بالمدينة في ٢٢ شوال سنة ١١٣٨هـ، انظر: المصدر السابق ص ٦٠.

(٩) **الدكتور عبدالله العثيمين** الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ حياته وفكره ـ دار العلوم، الرياض ص ٣١ـ٣٢.

(١٠) **الشيخ عبدالله بن إبراهيم بن سيف بن عبدالله الشمري** العالم المشهور في المدينة النبوية، انتقل أبوه إبراهيم بن سيف بن عبدالله الشمري، من بلدة المجمعة بعد أن قام على بيته وجعل بعضه مسجدا، وهو المعروف اليوم بمسجد إبراهيم في بلدة المجمعة وسكن في المدينة المنورة.

انظر: إبراهيم بن صالح بن عيسى ـ تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد منشورات دار اليمامة، الرياض، ص ٣٤.

(١١) **سلك الدرر**. ج ٢ ص ٣٠٣.

(١٢) **عمر بن عبدالسلام الداغستاني** تحفة الدهر ونفحة الزهر في شعراء المدينة من اهل العصر «مخطوط» ص ٦١.

(١٣) **تحفة المحبين والأصحاب**، المقدمة «و».

(١٤) المصدر السابق ص ١٤.

(١٥) المصدر السابق ص ٨.

(١٦) المصدر السابق ص ٢٨.

(١٧) F. Rosental Ahistory of Mus lim Historiography, Leiden, 1952, P. 142

(١٨) **عبدالله محمد بن فرحون اليعمري المالكي** ولد سنة ٦٩٣هـ وكانت وفاته سنة ٧٦٩هـ ـ انظر: شهاب الدين احمد بن محمد بن حجر العسقلاني «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» «تحقيق محمد جاد الحق» ط ٢، ١٣٨٥هـ، ج ٢. ص ٤٠.

(١٩) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب في مكتبة عارف حكمت بالمدينة.

(٢٠) **عفيف الدين عبدالله بن محمد بن أحمد المطرى** المتوفى سنة ٧٦٥هـ ديسمبر ١٣٦٣م انظر: فرانز روزنتال «علم التاريخ عند المسلمين» ـ ترجمة الدكتور أحمد صالح العلي، بغداد ١٩٦٣م، ص ٥٥٦.

(٢١) **محمد بن عبدالرحمن بن محمد السخاوي**: ولد في القاهرة سنة ٨٣١هـ ـ ١٤٢٧م وتوفى بالمدينة المنورة ٩٠٢هـ ـ ١٤٩٧م ـ انظر المصدر السابق ص ٣٧١هـ.

(٢٢) **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، نشر في القاهرة سنة ١٣٧٦هـ بتقديم الدكتور طه حسين، وعناية المرحوم أسعد طرابزوني ثم في طبعة ثانية سنة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

(٢٣) نسبة إلى الخليفة، وأول من قدم منهم المدينة المنورة سنة ٩٩٠هـ الشيخ عبدالوهاب الخليفتي العباسي ـ انظر: تحفة المحبين ص ٢٠١.

(٢٤) سلك الدرر، ج ٤ ص ٦٠.

(٢٥) تراجم أعيان المدينة ص ٧٦.

(٢٦) **إسماعيل باشا البغدادي** ـ ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون طبعة استنبول، ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م ص ٦٢٣.

(٢٧) **عمر بن عبدالسلام الداغستاني** الانصاري المتوفى بعد عام ١٢٠١هـ ـ ١٧٨٦م انظر ترجمته في تحفة المحبين للانصاري ص ٢٩٩ ـ ٢٣١، والمنهل عدد ابريل ١٩٦٩م.ص ٢٥٢ مقالة الشيخ محمد سعيد دفتردار عن آل الداغستاني وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لعبدالرزاق البيطار ط. مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦١م ص ١١١٥ـ١١٢٩.

(٢٨) يذكر **المرحوم الأستاذ محمد سعيد دفتردار** في مقالته بمجلة المنهل أنه كانت توجد من هذا الكتاب نسخة تامة في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت ولكنها مفقودة الآن وتوجد منه نسخة في مكتبة آل هاشم، ومكتبة السيد عبيد مدني ـ رحمه الله ـ وتوجد في مكتبة ال الداغستاني نسخة مخرومة.

(٢٩) **علي بن احمد بن محمد بن معصوم الحسيني** الحسنى المعروف بعلي خان الشهير بابن معصوم «١٠٥٢/١١١٩هـ» من كتبه «سلافة العصر في محاسن اهل العصر» انظر: الاعلام للزركلي ج ٤ ص ٢٥٨ـ٢٥٩.

(٣٠) مخطوطة تحفة الدهر **للداغستاني** ص ٢.

(٣١) **الدكتور محمد عبدالرحمن الشامخ** ـ النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية. ١٩٠٠/١٩٤٥، الرياض ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م ٣٦ـ٣٧.

(٣٢) **يوسف بن عبدالكريم الانصاري** ولد بالمدينة سنة ١١٢١هـ أخذ عن والده والشيخ محمد بن الطيب والشيخ ابي الطاهر الكوراني والشيخ أبي الطيب السندي توفى مقتولا سنة ١١٧٧هـ بعد رحلة طويلة بدأها ببغداد وانهارها، وانهاها بمكة المكرمة ـ انظر تراجم اعيان المدينة ص ٥٢ ـ تحفة المحبين ص ٢٣ ـ ٢٥.

(٣٣) **جعفر بن حسين بن يحيى هاشم المدني** الأخبار الغريبة في ذكر ما وقع بطيبة الحبيبة ـ مخطوط، ص ٧٢.

أمين الحلواني

ومخطوطات مكتبة بريل

نُشِرَ البحث بمجلة عالم الكتب الفصلية، المجلد العاشر، العدد الثالث، محرم ١٤١٠هـ ـ أغسطس ١٩٨٩م ـ ص ٣٩٨ـ٤٠٧.

تنقل مصادر تاريخية وأدبية مختلفة أن مكتبة «بريل» في مدينة «ليدن» بهولندا، اشترت في عام ١٨٨٣م أكثر من ٦٠٠ مخطوطة من العالم العربي المسلم «أمين بن حسن المدني[١] فمن هذه الشخصية التي قامت بنقل هذه المخطوطات إلى ذلك البلد الأوروبي؟ وما هي العوامل التي دفعتها للقيام بمثل هذا العمل؟ وما قيمة هذه المخطوطات العلمية التي تم شراؤها من قبل هذه المكتبة التي اشتهرت بقسمها العربي المختص ونشر الكتب والمخطوطات العربية منذ عام ١٨٨٣م؟.

شخصية أمين بن حسن الحلواني المدني

يشير مؤرخ المدينة المنورة في القرن الثاني عشر «عبدالرحمن الأنصاري» إلى هجرة أسرة تدعى بأسرة «الحلواني» من «الهند» إلى «المدينة» في تلك الحقبة التاريخية، حيث قدم الشيخ «محمد أمين الهندي الكشميري الحلواني» سنة ١١٤٠هـ، ويصفه الأنصارى قائلا: «وكان رجلا، كاملا، عاقلا، صاحب ثروة»[٢]

ولا أعلم إذا ما كانت الشخصية التي نحن بصددها تنتمي إلى هذه الأسرة أم لا؟ كما أنه ليس من دليل يؤكد أو ينفي انتماءه إلى الأسرة التي تحمل الاسم نفسه في الوقت الحاضر، والتي ما زال عدد من أفرادها يعيش في المدينة المنورة.

أما «**أمين الحلواني**» فلا نجد خيرا من «محب الدين الخطيب» ـ رحمه الله ـ ليحدثنا عنه وعن اتجاهه العلمي وإنتاجه الأدبي حديثا مفصلا في تحقيقه للكتاب الذي اختصره «الحلواني» وهو «مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود»[٣] لعثمان بن سند البصري الوائلي[٤]، **يقول «الخطيب» في حديثه عن «الحلواني»**: (عالم من أهل المدينة، كان والده من أعيانها وأفاضلها حتى أن «الشريف عبدالله بن عون»[٥] أمير مكة، أوفده في سنة ١٢٧٩هـ إلى أمير نجد «فيصل بن تركي»[٦]، لينصح له بإعادة الخراج

المـرتب عليه للدولة العثمانية. فنجح الشيخ «حسن الحلواني» في مهمته، وكان موضع التجلة والإكرام من أمير نجد، وقد نشأ الشيخ أمين في طلب العلم، واقتناء المصنفات الجيدة، ولا سيما المخطوطة، وقام بالتدريس في الحـرم النبـوي الشـريف[٧]، ولعل عبارة وردت في الكتاب الذي اختصره «مطالع السعود» تدل على طلبه للعلم في الجامع الأزهر بمصر[٨] ـ رحمه الله ـ **ودوّن ذلك قائلا:**

«**وأما الشيخ عبدالرحمن** المذكور فقد أدركته في الجامع الأزهر، يدرس مذهب الحنـابلة، وكـان شيـخ رواق الحنـابلة سنـة ١٢٧٣هـ وتوفى سنة ١٢٧٤هـ وكـان عالمـا، فقيهـا، ذا سمت حسن يظهـر عليـه التقـوى والصـلاح»[٩]، ولا يستبعـد تأثر الشيخ الحلواني بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الإصلاحية بعد التقائه بابنه الشيخ عبدالرحمن ـ رحمهما الله ـ لمـا يعكسـه اسم أحد مؤلفاته الذي ظهر في سنة ١٣١٢هـ تحت عنوان «السيول المغرقة على الصواعق المحرقة».

ويـذكر الخطيب أن الكتاب رد على السيد أحمد سعد المدني[١٠] من المنتمين الى طريقـة الشيـخ أبي الهدى الصيادي[١١]، لكن الشيخ أمين حلواني لم يصرح في هذا الرد باسمه وانتحل اسما مستعاراً هو «عبدالباسط المنوفي»[١٢].

انتاج الحلواني العلمي والأدبي:

لقـد اشتهر الحلواني باختصاره لكتاب «مطالع السعود» الذي يشتمل على أخبار بغداد من سنة ١٨١١ـ١٢٤٢هـ / ١٧٧٤ـ١٨٢٦م[١٣] وقد نشره الحلواني في بومباي بالهند سنة ١٣٠٤/١٨٨٦[١٤]، ثم أعاد نشره محب الدين الخطيب في القاهرة سنة ١٣٧١هـ/١٩٥٣م[١٥] وقد اشتملت مقدمة الكتاب على ترجمة «لعثمان بن سند البصري» قام بكتابتها «محمد بهجة الأثري» وترجمة «لأمين الحلواني» ملقيا الضوء على مشاركته العلمية في جوانب متعـددة من تراثنا الإسلامي والعربي، ويظهر أن «الحلواني» اهتم بتاريخ «ابن سند» هذا فاستنسخ عدة نسخ منه، كالنسخة التي توجد في المكتبـة العبـاسية بالبصرة، التي فرغ منها في «قصبة الزبير» آخر ذي الحجة ١٢٦٦هـ في ٢٧٧ صفحة، ونسخة ثالثة بمكتبة المرحوم «إبراهيم

الدروبي»، وجميع هذه النسخ بخط الحلواني.[١٦]

وللحلواني كتاب ينقد فيه مؤلفات «جورجي زيدان»[١٧] التاريخية ظهر في الهند سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م، تحت عنوان «نشر الهذيان من تاريخ جورجي زيدان»[١٨]، ولقد رد «زيدان» على كتاب «الحلواني» هذا برسالة سماها «رد رنان على نبش الهذيان»، وطبعت سنة ١٣٠٩هـ ١٨٩١م[١٩]، كما قام الحلواني بطبع ديوان «لزوم ما لا يلزم» «لأحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخى المعرى» في الهند سنةن ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م.

ويظهر أن «الحلواني» قام بكتابة ترجمة عن حياة «أبي العلاء وبعض الشروح والتعليقات على عمله الأدبي المعروف «باللزوميات»[٢٠] كما ألف رسالة صغيرة في علم الفلاحة التي دعاها «جني النحلة في كيفية غرس النخلة» ويظن «الخطيب» أن «الحلواني» ألف هذه الرسالة في مصر سنة ١٣٠١هـ/١٨٨٣م، ليرشد المشتغلين فيها بالزراعة إلى تجارب أهل المدينة التي اقتبسوها من أهل القصيم في نجد، مثل بريدة وعنيزة والرس، والقائمين على تربيتها ورعايتها[٢١]، ولعل حياة الحلواني في المدينة اتصلت بشيء من أحوال الزراعة فحمد الجاسر يحدثنا أن الحلواني كان يسكن في المدينة في دار مطلة على الحديقة العينية.[٢٢]

صلة الحلواني بمحمد محمود التركزي الشنقيطي :[٢٣]

يذكر محب الدين الخطيب أن العامل وراء نزوح الحلواني من المدينة هو تأليفه في سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م، لرسالة ينكر فيها صحة المخلفات النبوية التي كانت الدولة العثمانية تتقرب إلى العامة بدعوى الحيازة لها والاحتفال بها في مواكب دورية أو غير دورية، وعلى أثر ذلك قام الحلواني برحلة إلى مصر وبعض بلاد الشرق العربي، وفي مصر اتصل بالعلامة التركزي الشنقيطي، فأخذ عنه واستفاد منه[٢٤] إلا أن نصوصا أخرى تثبت أن علاقته العلمية بالشنقيطي تمت قبل هذا الوقت، ويبدو أن الحلواني لم يغادر المدينة قبل نهاية ١٢٩٩هـ/١٨٨١م، وهي السنة التي استنسخ فيها نسخة من شعر أبي المحجن باسره «رواية أبي يوسف يعقوب السكيت، ثم أبي سعيد السكري، وأبي الحسن الطوسي، حيث كتبها الحلواني في المدينة المنورة فى الثالث من ذى القعدة سنة ١٢٩٩هـ، وعلق الحلواني في نهاية

هذه النسخة أنه نقلها من نسخة «بخط أديب زمانه وحيد عصره الشيخ محمد محمود التلاميد الشنقيطي، وهو نقل من خط ياقوت ولفظه.....»[٢٥]

ويذكر «الجاسر» نصا آخر يؤكد هذه العلاقة التي تمت في المدينة المنورة بين «الحلواني» و «الشنقيطي» في سنة ١٢٩٩هـ، وقد نقل الجاسر هذا النص من طرة المخطوطة رقم ٢٢ ش «تاريخ» من كتاب «عمود النسب» الموجودة بدار الكتب المصرية، وهو بخط الحلواني الذي أثبت قراءته للكتاب على الشنقيطي قائلا:

«قرأت هذا الكتاب (عمود النسب) للفهامة أحمد البدوي قراءة ضبط وتحرير، دراية ورواية، فأوضحت مشكله وأعربت مغفله، وبينت مبهمه، وفصلت مجمعه، على شيخنا وأستاذنا علامة فن اللغة والأنساب، وفهامة علم سيرة النبي والأصحاب، إمام المؤرخين بلا مدافع، سيدنا النسابة الشيخ محمد محمود الشنقيطي العشمي ـ أمتع الله بحياته ـ في مجالس منها في روضة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومنها في داري المطلة على الحديقة العينية وآخر مجلس وبه تم الكتاب في بيته ـ حرسه الله ـ في حارة الأغوات بقرب منهل العين الزرقاء».

وفي ظني أن هذه النسخة غدت من النسخ التي يعول عليها، ويرجع في المعضلات إليها. وكتبه الفقير إليه تعالى أمين بن حسن الحلواني المدني خادم العلم بالروضة المطهرة، في غرة رجب سنة تسع وتسعين بعد المائتين والألف من هجرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.[٢٦]

وقبل أن نتحدث عن رحلة الحلواني إلى البلاد الأوروبية، فإنه من الضروري أن نتحدث عن رحلة التركزي إلى هذه البلاد، ما دمنا بصدد الحديث عن العلاقة العلمية التي ربطت بين هاتين الشخصيتين، التي تركت بصماتها الواضحة على ما أبدعاه من إنتاج وما أدياه من جهد.

رحلة التركزي:

يذكر «التركزي»: ـ نفسه ـ أن ملك السويد والنرويج «أسكار الثاني» أرسل إلى السلطان «عبدالحميد الثاني»[٢٧] عام ١٣٠٦هـ ١٨٨٨م. مبديا رغبته في أن يقوم الشيخ التركزي الشنقيطي بحضور مؤتمر المستشرقين

الثامن المنعقد في مدينة استكهولم[٢٨]، ولقد قام سفير السويد بمصر في ذلك الوقت «الكونت كارلودي لندبرج»[٢٩]، بالإشراف على متطلبات الرحلة، حيث اشترط الشنقيطي عدة شروط قبل القيام برحلته منها أن يكون توجهه بصفة ترفع شأن الإسلام وأهله، بأن ينتخب ثلاثة أو أربعة من أهل العلم بالعربية، ويستصحب مؤذنا وطهاة مسلمين. كما طلب السفير المذكور أن يقوم الشنقيطي بإنشاء قصيدة على أسلوب شعر العرب السابقين، لا على أسلوب شعر الشعراء في تلك الحقبة».

ولقد قام الشنقيطي بإنشاء القصيدة المطلوبة، ولكنه لم يحضر المؤتمر[٣٠] لعدم تنفيذ المسئولين في الدولة العثمانية ـ ـ في ذلك الوقت ـ مقترحاته التي اشترطها عليهم قبل القيام بالرحلة نفسها.

لقد قاربت القصيدة التي أنشأها شاعرنا لإلقائها في ذلك المؤتمر الاستشراقي حوالي مائتي بيت من الشعر الرصين، وافتتحها كما يفتتح شعراء العرب القدامى قصائدهم قائلا:[٣١]

ألا طرقت مي فتى مطلع النجم
غريبا عن الأوطان في أمم العجم
منافيَّةٌ زارت على شحط دارها
خِدَبّاً ، مِذَبّاً ، عن قريش وعن دُعمي
فتاة ضياء الشمس ضوء جبينها
حصانٌ ، رزانٌ، عَبْلَةٌ ، بضَّةُ الجسم
إذا غاب عنها البعل حينا تحدرت
ويرضيه نيل اللثم إن آب والشم
تصافحه عند اللُّقى بأنامل
سباط البنان لا غلاظ ولا كُزْمِ

ويذكر بعد مأثرة هذا الملك الأوروبي في تبنيه لمثل هذا المؤتمر العلمي:

مآدب كل الناس للطعم وحده
ومأدُبتا «أسكار» للعلم والطُّعم

دعا دعوة للعلم عمت وخصصت

فأضحى بها «أسكان» يعلو على النَّجم

دعا الجفلى كل الأنام معمما

وبالنقرى كنت المخصص بالاسم

عن العرب العرباء آتيك نائبا

وعن أمة الإسلام في العلم والفهم

وفي اللغة الفصحى القريشية التي

بها أثبت القرآن في الصحف بالرسم

ولم أعتمد إلا على الله وحده

وأبرأ ممن خاض في الغيب بالرجم

ويشير إلى رحلته الطويلة مع العلم ومذاهبه قائلا:

ولمَّا علمتُ ما علمتُ بغربنا

ترحلت نحو الشرق بالحزم والعزم

ولم يثن عزمي نَهْيُ حسناء غادةٍ

شبيهةِ جُمْل، بل بُثَيْنَةَ، بل نُعْم

ولم يُغْمِ قلبي حبُّ عذراء كاعبٍ

وحب العذارى قد يُصِمُّ وقد يُعمْي

رحلت لجمع العلم والكتب ذاهباً

إلى الله، أبغي بسطةَ العلم في جسمي

ويعرج في قصيدته هذه أيضا على ذكر العلاقة العلمية التي تربط بينه وبين «محمد عبده»(٣٢).

تذكرت من يبكي علي فلم أجد

سوى كُتُب تُختانُ بعديَ أو علمي

وغير الفتى المفتي محمد عبده

الصديقُ الصدوقُ الصادقُ الودِ والكلْمِ

ولعله من المناسب بعد إيرادنا لمقتطفات من قصيدته التي أنشأها لهذا المؤتمر أن نورد شيئا من قصيدته التي أنشأها أثناء رحلته التي قام بها لبلاد الأندلس سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م، للاطلاع على الكتب والمخطوطات

العربية، وفيها يجسد الشاعر تأسيه وحزنه على الوضع الذي آلت إليه هذه الجزيرة الإسلامية، وما تحتويه من آثار ونفائس علمية:

لكتب أندلس، ويل لأندلس
وعلم أندلس من بعد ما اندرسا
جزيرة العلم والإسلام،قبل وقد
هدت قواعده بالكفر فارتكسا
وجدت كتباً بها غراً محجلة
منها الحديث. ومنها الرث قد درسا
. لكنها في حصون الروم محصنة
فنفعها عن مراد الواقف احتبسا
أمسى حديثا معادا أهل أندلس
وأعظما رقما كانت هي الرؤسا
علما وحلما وأخلاقا مهذبة
ودين صدق متينا قيما أسسا
ونجدة لم تكن لغيرهم ورثت
من «طارق» مذ أذل الكفر [فانخنسا]
ولم يدع ليث كفر شامخا شمما
في الغيل يزأر إلا اصطاد وافترسا
وألبس العرب العرباء قاطبة
بفتحها ثوب عن قبل ما لبسا
أعدها جنة للمسلمين زهت
وأثمرت من ثمار الدين ما غرسا
ومذ قرون مضت بالذل أربعة
تمكن الكفر فيها وحده ورسا
وافتر للشرك منها الثغر مبتسما
من بعد ما افتر للتوحيد فانعكسا
فأحصنت فرجها بالكفر مكرهة
وألبست حلية من حلية وكسا
وأصبحت من حلي الإسلام قد عطلت
والدين منقرض، والنور قد طمسا

صــارت جوامعهـــا بعـــد الصـــلاة بـــهــا
على الأذى والخـــنـــا موقـــوفـــة حبـــســـا
رأيـــت فيـــه مصـــلى المـــسـلمـــيـــن بـــه
للكـــافـــريـــن غـدا إذ جـده تَعِسَا
رأيـــت فيـــه مقـــام المـــؤذنـــيـــن بـــه
معـــطـــلا من أذان الله مبـــتـئــســـا
ولا أذان بـه يـدعــو العـــبــاد إلى
عبـــادة الله إلا اللغـــو والجـــرســـا
ولا صـــلاة بـه للنـــاس جامـــعـــة
إلا المـــكـــاء وإلا نقس من نقـــســـا
فكـــادت النـــفس منـــي غيـــرة وجـــوى
تَفِيظُ من جمعـــه الأنجـــاس والدنســـا
والنـــاصـــر الله أن ييئس فنصـــرتـــه
تجـــيء مســـتيئســـا من بعـــد ما يئســـا

رحلة الحلواني:

يذكر محب الدين الخطيب أن الحلواني ذهب إلى «ليدن» وامستردام في سنة ١٣٠١هـ/١٨٨٣م، بمجموعة من المخطوطات العربية كان اقتناها في السنين السالفة، فابتاعتها منه مكتبة ليدن الغنية بنفائس مخطوطاتها العربية، «ولمخطوطات الحلواني هذه فهرس خاص وضعه المستشرقون ووصفوا فيه مفرداتها»[٣٤].

فهرس مخطوطات مكتبة الحلواني:

تحتوي مكتبة جُون رايلاندز بجامعة مانشستر بالمملكة المتحدة(The John Rylands University Library of Manchester على نسخه[٣٥] من هذا الفهرس الذي وضعه المستشرق السويدي «كارلو لاندبرج (Car lolandberg) ويحمل اسم «فهرس مخطوطات عربية مأخوذة من مكتبة خاصة بالمدينة» ـ ليدن، بريل، ١٨٨٣م.

Uataloggue de Manscripts Arabes Provenant D Une Bigliotheque IE A eevrip--Medina Leide - J. Brill 1883

ويقع الفهرس في ١٨٣ صفحة باللغة الفرنسية[٣٦]، إلا أن أسماء الكتب التي تضمنها الفهرس وعددها (٦٦٤) كتابا ذكرت باللغة العربية وفي نهايته ذكر واضعه أنه انتهى من عمله في ليدن ٢٠ سبتمبر ١٨٨٣م.

مقدمة الفهرس:

لقد ابتدأ «**لاندبرج**» هذه المقدمة بالحديث عن علاقته بالحلواني، وعن الظروف التي دفعته لبيع المخطوطات النادرة التي كانت في حوزته فيقول: «لقد تركت صديقي العالم الجدير جدا بالتقدير الشيخ أمين المدني في القاهرة أثناء شهر فبراير. مغادرا إلى منطقة البدو في غرب دمشق، ولم يكن حينئذ لديه الرغبة في بيع مكتبته، ولكنني رأيته بعد ذلك في أمستردام، عاقدا العزم على بيع كتبه التجارية بعد أن تعرضت استثماراته المالية لمضاربة فاشلة، كان خلفها شخص غير أمين، التقى به «الحلواني» في مصر أثناء إقامته بها.

لقد أخذت مؤسسة «**بريل**» المبادرة واشترت ما عرضه «الحلواني» من كتب، وطلبت مني إعداد فهرس لها في مدة أقصاها شهران من الزمن، إلا أنني رفضت في البداية هذا الطلب من المؤسسة بسبب عامل الوقت الذي حددته لإنجاز هذا العمل، ولكن عرفاني بجميل المؤسسة المتمثل في نشرها لمؤلفاتي. إضافة إلى توسلها الدائم للقيام بالعمل، دفعاني لأخذ المبادرة في تنفيذه، لقد استغرق عمل هذا الفهرس أقل من شهر، وهذا ما يحملني تقديم العذر عن احتمال ما قد يوجد فيه من أخطاء، فإن السرعة في إنجازه هي العامل الرئيسي وراء ذلك.

ثم ينتقل بعد ذلك «**لاندبرج**» للحديث عن هذه المخطوطات التي دخلت في حيازة مؤسسة «بريل».

تمثل أهمية هذه المجموعة التي تزيد على ٦٠٠ مخطوطة في احتوائها على مؤلفات فريدة من نوعها وغير معروفة حتى في الشرق نفسه، فأهمية المجموعة لا تنبثق فقط من ناحية حب الاستطلاع فقط، ولكن من الناحية العلمية أيضا، سوف يستغرب أحدنا من وجود سلسلة محترمة من المؤلفات اليمنية في الناحيتين، التاريخية والأدبية لبلد لا يعرف عنه إلا القليل. فقبل عشر سنوات من الآن «زمن وضع هذا الفهرس ١٨٨٣م» كان اليمن يعيش

حياة تكاد تكون منفصلة عمن سواه، وهي حياة شبه مجهولة حتى في منطقة قريبة له كالحجاز ، وبالرغم من ذلك، ففي هذا البلد كانت وما زالت ـ إلى درجة معينة ـ تجرى حياة علمية نشطة، ويتمتع أهله بذوق فطري وأدبي قلما يتوفر في مكان آخر، ولقد حفظوا هذا الأدب وشجعوا المؤسسات التعليمية فأثمر هذا التشجيع عن انبثاق مجموعة من العلماء، والشعراء، والنساخ الأذكياء، والدليل على ما أذكره هنا هو وفرة الأعمال اليمنية التي تحتوي عليها هذه المجموعة من المخطوطات.

سوف تملأ الأعمال الأدبية اليمنية تلك الثغرات الموجودة في علمنا عن الشرق. كما ستلقى الوثائق المتخصصة في «القرامطة» ضوءا جديدا على حياة هذه الفرقة الدينية التي جذبت في وقت سابق كثيرا من الأنصار في الجزيرة العربية، كما سيجد اليمنيون أن الأعمال المتعددة التي أنتجها «أبو مخرقة بن المتوكل»(٣٧) وغيره من مشهوري رجال اليمن، قد لعبت دورا جديرا في حياة اليمن الأدبية والعلمية، مما يؤهلها أن تكون خير شاهد ومؤرخ لهذا القطر في البلاد الأوروبية.

سوف يجد المتخصص في الأدب العربي متعته في مطالعة مجموعة من الدواوين الشعرية المتجانسة والتي تفتقر إلى وجودها المكتبات الأوروبية، فمن بين هذه الدواوين نسخة كاملة من ديوان الأعشى(٣٨) هذه النسخة وإن لم تتوفر لها المقارنة العملية اللازمة.. إلا أنها تعتبر اكتشافا جديدا في عالم الأدب، كما أن جمهرة أشعار العرب لابن أبي الخطاب(٣٩) سوف تكون معينا مفيدا للراغب في تحقيق الأدب القديم بصورة كلية أو متفرقة.

إن بعض هذه الوثائق الأدبية تعتبر بحق تحفا خطية مضبوطة، بل ولم تترك شيئاً نرغب في وجوده فيها إلا واحتوته.

تمثل هذه المجموعة أيضا الميدان التاريخي بصورة واسعة، إلا أنها لم تحتو إلا على القليل في تاريخ المدن المقدسة(٤٠)، ولكننا نجد نسخة خطية من تاريخ «الذهبي»(٤١) التي سوف يرحِّبُ بها المحقق العالم لجزء منْ تاريخ الطَّبري، إنَّ الإنتاج السِّيري «التَّراجِم» أدى خدمة جليلة في إخراج هذا الفهرس لحيز الوجود فليس من الضروري أن تكون الأعمال الصغيرة أقل أهمية، حيث إن الناس دائما يدرسون الرسائل التاريخية المحدودة في

سبيل فهم الأعمال الأكثر شمولا في مادتها.

أما في الجزء المتخصص في مجال الشريعة الإسلامية فإننا نجد نسخة من كتـاب «المزي»(٤٢) وهي حسب علمي ربما كانت النسخة الوحيدة في الشرق، وأغلب المؤلفات في هذا المجال إضافة إلى كتب الأحاديث النبوية هي من ممتلكـات علمـاء من مكـة والمدينة، حسب ما تثبته تصحيحاتهم وتعليقاتهم عليها.

إن سرد وبحث هذه الوثـائق النفيسـة المتعلقة بحياة العرب الدينية والتاريخية، واللغوية بصورة تفصيلية، أمر يتطلب كثيرا من الوقت وهو مالا تسمح به ظروف هذا الفهرس المحدد الذي حاولت في مقدمته هذه أن أركز الانتباه على الأعمال الرئيسية، والتي يتسم بعضها بخلل أو نقص، ولكن هذه العيـوب يعوضها دائما الوضوح المتوفر في المخطوطات ـ نفسها ـ والتي أثبت مسمَّيـاتها وأسماء مؤلفيها حسب ورودها فيها، وإن احتجت أحيانا الرجوع إلى كتاب حاجي خليفة(٤٣) في طبعته القاهرية، وحيث إن عددا وافرا من المخطوطات قام بكتابته مؤلفون عرفوا بشهرتهم التاريخية.. إضافة إلى الرغبة في تشجيع البحث العلمي، فإنني رأيته مفيدا أن أثبت في نهاية هذا الفهرس قائمة بهذه الأسماء.

أتمنى ألا يعطى هذا الفهرس ـ أو بالأصح ـ هذه القائمة، مقدارا زائدا عن الأهميـة الحقيقية التي تستحقها، فإني أنشرها مجردا نفسي من أي إدعاء، لقد كانت التجربة التي مررت بها خلال معايشتي المخطوطات قراءة وبحثـا، تجـربة مثيرة تشبه تلك التجربة التي يمر بها البخيل عندما يقوم بمعـاينـة ثروتـه، ولكن ما يجعل هاتين التجربتين غير متكافئتين هو ذلك السؤال الذي كنت أطرحه على نفسي عندما أقوم بوضع الأرقام الخاصة بكل جزء من هذه المجموعة.

إنني لأتجرأ القول متمنيا وأنا في مرحلة انتهائي من العمل في هذه المجموعة من المخطوطات أن ينتهي بها المقام في الأيدي التي تستحقها، تلك الأيدي التي تنشر من غير تردد أو صعوبة ما تحتويه من علوم نرغب جميعا في معرفتها.(٤٤)

وصف محتويات الفهرس:

لقد قسم «لاندبرج» المخطوطات التي يحتوي عليها هذا الفهرس إلى **ثلاثة عشر جزءا وملحقا**، معتمدا في تقسيمه هذا على تخصصاتها أو ما تتضمنه من مواد علمية، وسوف نتعرض هنا لأقسام هذا الفهرس. مع ذكر نماذج من أسماء مخطوطات كل قسم مقرونة بأسماء مؤلفيها كما أوردها واضعه، مع الإشارة إلى الأرقام التي وضعت لها في الفهرس نفسه.

الجزء الأول ويشمل ٢٢٨ مخطوطا، وقد دعى هذا الجزء بالمصادر الأولية، ومن هذه المصادر الأولية:

* **ابن كثير**: البداية والنهاية في التاريخ ـ ٢.
* **الإمام [محمود] العيني**: عقد الجمان في أخبار أهل الزمان ـ ٣.
* **أبوالحسين أحمد بن فارس**: مجمل اللغة ـ ١٣.
* **أبوالفتح عثمان بن جني**: مختصر التصريف الملوكي ـ ٢٥.
* **مسلم بن الحجاج**: الصحيح ـ ٣١.
* **ابن القيم**: (محمد أبوبكر بن زرعة) ـ ٥٣.
* **عبدالرحمن الجبرتي**: مدة دخول الفرنسيين بمصر ـ ٦١.
* **القاضي أبوعبدالله الضبي**: أمالي الضَّبي ـ ١٢٢.
* **محمد بن عبدالوهاب**: رسائل في حكم أحوال القبر والحشر.. في حكم الغيبة والنميمة والفتن التي تحدث.. في حكم خلق الله السموات والأرض.. في حكم الغيظ والحلم ـ ١٢٤.
* **للمؤلف نفسه**: رسالة في مبحث الاجتهاد والتقليد والاختلاف فيهما ـ ١٢٥.
* **للمؤلف نفسه**: العقائد الوهابية ـ ١٢٦.
* **أحمد بن عبدالسلام بن تيمية الحراني**: في النجاسات المفقودة ـ ١٢٧.
* **أبوالقاسم خلف العباسي الزهراوي الأندلسي**: الجزء الثاني من كتاب الزهراوي في علم الطب والتشريح وفي الجراحات وغير ذلك ـ ١٦٩.
* **الحافظ الذهبي**: التلويحات في علم القراءات ـ ١٨٧.

* **أحمد المقريزي**: مناقب أحمد بن حنبل ـ ١٨٨.
* **الخطيب التبريزي**: شرح بانت سعاد ـ ١٩٨.
* **أبوالحسن علي بن الحسين المفسر**: الاستدراكات على «أبي علي الفارسي» ـ ٢٠٧.
* **ديوان الإمام المنصور بالله** أبي عبدالله بن حمزة بن سليمان ـ ٢٧٧.

الجزء الثاني: (تاريخ) ويشمل هذا الجزء ٧٣ مخطوطا منها:
* **ابن حجر العسقلاني**: الإصابة في تاريخ أسماء الصحابة ـ ٢٨٨.
* **أبوحنيفة الدينوري**: الأخبار الطوال ـ ٢٣٠.
* **السيوطي**: لب اللباب في تحرير الأنساب والألقاب ـ ٢٧٧.
* **السيد أحمد بن معصوم المدني**: سلافة العصر في مناقب أهل العصر.

الجزء الثالث: (أدب) ويشمل هذا الجزء ١٣١ مخطوطا منها:
* **ديوان** لبيد بن أبي ربيعة ـ ٣٠١.
* **ديوان** أبي محجن الثقفي ـ ٣٠٣.
* **ديوان** الحطيئة ـ ٣٠٤.
* **ديوان** الحادرة ـ ٣٠٥.
* **ديوان** الشماخ بن ضرار ـ ٣٠٧.
* **ديوان** عمر بن أبي ربيعة المخزومي ـ ٣٠٨.
* **ديوان** أبي نواس الحكمي ـ ٣٠٩.
* **ديوان** البحتري ـ ٣١٢.
* **أبوزكريا يحيى الخطيب التبريزي**: شرح ديوان أبي تمام ـ ٣١٣.
* **ديوان أبي الحسن بن علي بن محمد التهامي ـ ٣١٦.**
* **ديوان علي بن أبي طالب ـ ٣١٧.**
* **ديوان أحمد بن حجر العسقلاني ـ ٣١٩.**
* **أبوالقاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك**: دار الطراز في الموشحات ـ ٣٢٤.
* **محمد بن موسى كامل الدين الدميري**: شرح لامية العجم ـ ٣٩٧.
* خضر الموصلي: الإسعاف (شرح شواهد الكشاف) ـ ٤٠٤.

الجزء الرابع (طب) ويشمل ١٠ مخطوطات منها:

* **الأزرقي اليمني الزبيدي**: كتاب الطب ـ ٤٣٤.
* **أحمـد الدمنهوري**: منتهى التصريح بمضمون القول الصريح في علم التشريح ـ ٤٣٦.

الجزء الخامس (فلك) ويشمل ١٦ مخطوطا منها:

* **أبوالقاسم الصوفي**: كتاب الزيج في علم الفلك ـ ٤٤١.

الجزء السادس (علوم) ويشمل ٧ مخطوطات منها:

* **أبوالعباس أحمد بن عبدالله** المعروف بابن البنا كتاب الجبر والمقابلة ـ ٤٥٧.
* **عثمان بن محمد المرعي**: شرح القواعد الوضاحة في علم المساحة ـ ٤٥٨.

الجزء السابع (العلوم الروحانية) ويشمل ١٥ مخطوطا منها:

* **كامل الدين أبوسالم محمد بن طلحة البسطاني**: الدرر المنظم في السِّر الأعظم ـ ٤٧٢.

الجزء الثامن (الكيمياء) ويشمل ٨ مخطوطات منها:

* **أبونصر محمد بن طرخان الفارابي الفيلسوف**: كتاب في علم المزاج ـ ٤٨٤.

الجزء التاسع (الدارسات القرآنية) ويشمل ١٩ مخطوطا منها:

* **السـيوطي**: الإتقان في علوم القرآن ـ ٤٨٨.
* **أبوإسحاق أحمد بن إبراهيم الثعالبي النيسابوري**: الكشف والبيان في تفسير القرآن ـ ٤٨٩.
* **محمد بن أحمد علي الوليد القرشي**: البرهان في علوم القرآن من الغريب والإعراب والتفسير والأحكام والناسخ والمنسوخ والاشتقاق من ....، والوقف وأعداد الآي ـ ٤٩٣.

الجزء العاشر (لغة) ويشمل ٢٧ مخطوطا منها:

* **سيبويه**: الكتاب ـ ٥٦.
* **يحيى بن حمزة اليمني**: الأزهار الصافية شرح المقدمة الكافية ـ ٥١١.
* **عبدالقادر بن أحمد بن علي الفخري المصري**: مجيب الندا إلى شرح الندى ـ ٥١٢.
* **أبوالحسن المزني**: معاني الحروف ـ ٥٢١.
* **تقي الدين الاسفاراييني**: اللباب في علم النحو ـ ٥٢٤.
* **صلاح الدين اليمني**: نزهة الطرف في الجار والمجرور والظرف، وأحكامها، وتقسيمها ـ ٥٢٩.
* **للمؤلف نفسه**: كتاب الألغاز ـ ٥٣١.

الجزء الحادي عشر (بلاغة) ويشمل ٢٢ مخطوطا منها:

* **سراج الدين أبو يعقوب السكاكي**: القسم الثالث من كتاب المفتاح ـ ٥٣٤.
* **الشيخ ياسين الحمصي**: شرح حاشية التلخيص، المسمى بالمختصر ـ ٥٣٩.
* **حسن شلبي الرومي**: حاشية المطول ـ ٥٤٥.
* **لطف الله الأرزني**: شرح نهاية الإيجاز في الحقيقة والمجاز ـ ٥٥٢.

الجزي الثاني عشر (منطق) ويشمل ٣٨ مخطوطا منها:

* **فخرالدين الرازي**: الآيات البينات في علم المنطق ـ ٥٥٧.
* **أحمد بن سليمان كمال باشا**: رسالة في الروح ـ ٥٧٦.

الجزء الثالث عشر (شريعة) ويشمل ٦٣ مخطوطا منها:

* **الشيخ محمد عابد السندي المدني الأنصاري**: طوالع الأنوار على الدر المختار ـ ٥٩٦.
* **الحافظ الذهبي**: مختصر تهذيب الكمال ـ ٦٠٢.
* **أحمد الخلال اليمني**: رسالة التحسين والتقبيح ـ ٦٠٦.
* **شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحراني الحنبلي**: السياسة الشرعية في

صلاح الراعي والرعية ـ ٦٢٤.

* **للمؤلف نفسه**: مناظرة ابن تيمية مع البطايحية ـ ٦٢٦.

* **للمؤلف نفسه**: رسالة تتضمن الحديث في سؤال النبي عن الإسلام والإحسان وجوابه عن ذلك ـ ٦٢٧.

* **للمؤلف نفسه**: قاعدة في رد على الغزالي في مسألة التوكل ـ ٦٢٨.

* **للمؤلف نفسه**: قاعدة في أفعال الحج ـ ٦٢٩.

* **للمؤلف نفسه**: قاعدة في الصبر ـ ٦٣٠.

* **محمد بن أحمد بن عبدالهادي الحنبلي**: مناقب ابن تيمية الحرَّاني ـ ٦٣٣.

* **سراج الدين أبو حافظ عمر بن علي بن موسى البزار**: الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ـ ٢١٥.

* **مرعي بن يوسف الحنبلي الدمشقي**: الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية ـ ٦٣٦.

* **ابن قيم الجوزية**: الكلم الطيب والعمل الصالح ـ ٦٣٧.

* **للمؤلف نفسه**: زاد المعاد في هدى خير العباد ـ ٦٣٨.

* **للمؤلف نفسه**: جلاء الأفهام في فضل الصلاة على خير الانام ـ ٢١٦.

* **للمؤلف نفسه**: تحفة المودود في أحكام المولود ـ ٦٤٠.

* **للمؤلف نفسه**: كتاب الروح ـ ٦٤١.

* **للمؤلف نفسه**: سفر الهجرتين وطريق السعادتين ـ ٦٤٢.

* **الشوكاني اليمني**: جواب الموحدين في دفع الشبه عن المجتهدين ـ ٦٤٤.

* **للمؤلف نفسه**: الدرر البهية في المسائل الفقهية ـ ١٤٥.

* **الملحق ويشمل ست مخطوطات، منها:**

* **الإمام محمد بن الحسن الشيباني**: رسالة في قرية تميم الداري ـ ٦٥٩.

خاتمة البحث ووفاة الحلواني

بعد أن تعرَّض هذا البحث لشخصية هذا المفكِّر الرَّحالة. الذي بدأ حياته طالب علم، ثم مدرسا بالحرم النبوي الشريف بالمدينة. نجد أن رحلته العلمية لم تتوقف عند ذلك، فإذا هو طالب علم ثانيةً في رحاب الجامع الأزهر الشريف. يلتقي بعلماء عصره كعبدالرحمن بن محمد بن عبدالوهاب ومحمد محمود التركزي الشنقيطي - رحمهما الله - وتطورت أواصر العلاقة العلمية بين الحلواني والشنقيطي، فإذا هُما يأخذان خطوات فعالة في مجالات البحث عن تراثنا العربي والإسلامي، يبحثان عن كنوزه وينشران منه ما تسمح به ظروفهما وظروف العصر نفسه.

وفي مصر التقى الحلواني - أيضا - بالمستشرق كارلُو لاندبرج ولا يستبعد أن الشنقيطي قد فعل ذلك، وذلك ما نستنتجه من محاولات «لاندبرج» في أن يقوم الشنقيطي برحلته إلى استكهولم لحضور مؤتمر المستشرقين الثامن المنعقد في تلك المدينة الأوروبية سنة ١٨٨٨م التي رحل إليها الحلواني من قبل في سنة ١٨٨٣م. عارضا للبيع - تحت ظروف مالية قاسية - تلك المجموعة الثمينة من المخطوطات العربية، التي أحرزت مؤسسة «بريل» بشرائها رَصِيداً علمياً في مَجَال اقتناء ونَشْر التُّراث العربي، وهو ما عُرفت به من قبل وما زالت محافظة عليها حتى الآن.

إلا أن ما صادفه الحلواني من مصاعب مالية أدت به إلى أن يتخلَّص من التراث العزيز على نفسه. الذي قضى في نسخه وجمعه عدة سنوات من حياته العلمية في المدينة، تلك المصاعب لم تتسبب في أن يفقد الحلواني صلته القوية بهذا التراث، فإذا هو يستقر في الهند يتابع في موطن إقامته الجديد نشره، ولا نعلم إذا ما كانت الهند هي المحطة الأخيرة في رحلة مفكرنا الحلواني، فبعض من ترجموا له مثل محب الدين الخطيب. يرون أن وفاته كانت بالهند(٤٥) ويرى الزركلي(٤٦) أن تاريخ الوفاة كان في سنة ١٣١٦هـ/١٨٦٨م وتُفصِّل مقالةٌ نُشِرت في مجلة المنهل الظروف التي أحاطت بوفاته كما يلي:

«أنـه **عندما تاق أمين حسن الحلواني** إلى زيارة البُلدان العربية في أواخر العهد العثماني، بارح المدينة المنورة وتوجه إلى طرابلس حاملا معه «الربع العجيب» الذي كان يستخدمه لمعرفة اتجاه القبلة وأوقات الصلاة، وسير النجوم وحركاتها، فقد كان المذكور من أحذق علماء الفلك في وقته، مشغوفاً بالبحث في هذا العلم، وقد قرأ عدة مؤلفات في علم الفلك قراءة درس وتمحيص. وكـان أبيض اللون، ضعيف النّـظر، وكان يستعمل نظارة طبية للاستعانة بها في المطالعة والدرس، وعندما توغل فيه داخل البلاد اشتبه في الأعراب الطرابلسيون هناك وظنوه غربيا لبياض بشرته، ووجود نظارة طبية على عينيه، فاتفقوا فيما بينهم على قتله ليلا، وبالرغم من أن كثيرا من أهل طرابلس تدخلوا في الأمر وأفهموا الأعراب أن الرحالة عربي مسلم جاء من البلاد المقدسة، إلا أنهم لم يقتنعوا بذلك، بل قتلوه في آخر الأمر لاعتقادهم أنّه غربي جاء يتجسس عليهم».(٤٧)

ويستنتــج كاتب المقالة أنّ وفاةَ الحلواني لم تكن في (بومباي) بالهند، ذاكراً أنه استقى معلوماته من محمد نصيف(٤٨) ـ رحمهُ الله ـ الذي كان على صلة كبيرة بعلماء عصره في العالم الإسلامي.

الهوامش

* سبق ان نشرتُ جُزءاً من هذا البحث في مجلة الطالب السعودي الصادرة عن نادى الطلاب السعوديين في المملكة البريطانية المتحدة، العدد الاول من السنة الخامسة في المحرم ١٤٠٦هـ ص ٣٠ ـ ٣٨.

(١) **انظر على سبيل المثال**: عبدالله عبدالجبار: التيارات الادبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية، ط، ص ١٩٣، معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ـ ١٩٥٩م.

(٢) **عبدالرحمن الانصاري**: (تحفة المحبين والأصحاب فيما للمدنيين من أنساب» تحقيق محمد العروسي المطوي، ط، ص ١٩٧. تونس ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

(٣) **داود باشا**: أصله من الكرج ومولده في حدود ١١٩٠هـ، كان عالما فاضلا أنشأ المدارس العظيمة، ودور الخير والإحسان، وقد تولى حكم العراق سنة ١٩٣٤هـ ثم ذهب إلى الأستانة بعد استسلامه لجيش السلطان محمود الثاني، وظل فيها إلى سنة ١٢٦٠هـ حيث أرسله السلطان عبدالمجيد خان شيخا على الحرم النبوي، وبقي بالمدينة مشتغلا بالعلم والتدريس إلى أن توفى سنة ١٢٦٧هـ.
انظر خليل مردم بك «أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع» ط ٢، ص ١٨٠ـ١٨٢ بيروت ١٩٧٧.

(٤) **عثمان بن سند البصري الوائلي**: أصله من نجد، ثم سكن البصرة، واشتغل بفنون لسان العرب، ومن تآليفه منظومة في علم الحساب ونظم قواعد الأعراب والأزهرية، ومغنى اللبيب. توفى سنة ١٢٥٠ انظر المصدر السابق ٥/ ١٦٤.

(٥) **عبدالله** (باشا) ابن محمد بن عبدالمعين بن عون، من أمراء مكة، ولد فيها سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨٢١. وأقام بالآستانة فأحرز رتبة الوزارة، ثم ولي إمارة مكة بعد وفاة أبيه سنة ١٢٧٤هـ فجاءها، وتسلم امورها واستمر فيها إلى ان توفى بالطائف سنة ١٢٤٦/ ١٨٧٧م.
انظر خير الدين الزركلي «الأعلام» ط ٣، ٤/ ١٣٢/ ١٩٥٥.

(٦) **فيصل بن تركي بن عبدالله** بن محمد بن سعود إمام شجاع حازم أقام في مصر معتقلا بين ١٢٥٥ـ١٢٥٩هـ ثم عاد إلى نجد ودانت له الأحساء والقصيم والعارض حتى أطراف الحجاز وعسير، وتوفى بالرياض سنة ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م انظر المصدر السابق ٥/ ١٦٤.

(٧) **عثمان بن سند البصري الوائلي** «مطالع السعود بأخبار الوالي داود» ـ اختصار أمين حسن الحلواني المدني، تحقيق محب الدين الخطيب، المقدمة، القاهرة ١٣٧١هـ.

(٨) **عالم مشهور**: ولد في بلاد نجد، وعندما انتقلت عائلة آل الشيخ إلى مصر، بعد أن حارب إبراهيم باشا عبدالله بن سعود أمير نجد التفت الشيخ عبدالرحمن إلى طلب التعلم والتعليم والإفادة إلى أن صار في الأزهر شيخ رواق الحنابلة، وكان ظاهر التقوى والصلاح والزهادة والعبادة إلى أن توفي سنة ١٢٧٤هـ، انظر عبدالرزاق البيطار «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» ـ تحقيق محمد بهجة البيطار، ٢/ ٨٣٩ المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م.

(٩) مختصر مطالع السعود: ١١٧.

(١٠) **احمد اسعد بن السيد بن محمد** أسعد المدني الحسيني، ولد في المدينة المنورة ١٢٤٥هـ وتلقى العلم على عدد من علماء وقته «الشيخ يوسف الصادق والشيخ عبدالغني الدمياطي والشيخ حبيب المغربي»

وتولى إفتاء المذهب الحنفي في المدينة، وتوفى في السابع من رمضان من عام ١٣١٤هـ في الآستانة، انـظر المصدر السابق ١/٢٠١ـ٢٠٦، ونقلا عن جعفر إبراهيم فقيه أن أحمد سعد، وأسعد العابد وأبا الهدى الصيادي كانوا من مستشاري السلطان عبدالحميد الثاني، ولهذا كانت إقامتهم في الآستانة.

(١١) **ابـو الهـدى الصيـادي**: محمد بن حسن على خزام الصيادي الرفاعي الحسيني، ولد في خان شيخون «من أعمال حلب» سنة ١٢٦٦/١٨٤٩، وتعلم بحلب وولى نقابة الأشراف فيها، ثم سكن الآستانة، واتصل بالسلطان عبدالحميد الثاني، فقلده مشيخة المشايخ، توفى في جزيرة الأمراء فى «رينكيبو» سنة ١٣٢٨هـ/١٩٠٩م الأعلام ٦/٣٢٤ـ٣٢٥.

(١٢) مختصر مطالع السعود ـ المقدمة.

(١٣) المصدر السابق.

(١٤) **على الخاقاني** «مخطوطات المكتبة العباسية في البصرة» القسم الأول/٥٠ مطبعة المجمع العلمي، العراق ١٣٨٠هـ/١٩٦١م.

(١٥) **مصطفى عبدالغني**: «مؤرخو الجزيرة العربية في العصر الحديث» ص ٦٤، القاهرة ١٩٨٠م.

(١٦) **على الخاقاني** ص ٥٠، ويذكر الخطيب أن الحلواني اختصر تاريخ ابن سند قبل قيامه برحلاته من المدينة للشرق وأوربا.

(١٧) **ولد في بيروت** سنة ١٨٦١م، ودرس في الكلية الأمريكية، وسافر إلى مصر، واشتغل بالصحافة، وأصدر مجلة الهلال، ووضع تآليف كثيرة في التاريخ والقصص، واللغة، والعلوم، توفى في مصر سنة ١٩١٤، انظر: بطرس البستاني، أدباء العرب ٣/٤٣٣، دار مارون عبود ـ بيروت.

(١٨) **إلياس سركيس** «معجم المطبوعات العربية والمعربة» ٢/١٧٥ القاهرة ١٣٤٦/١٩٢٨.

(١٩) مختصر مطالع السعود: المقدمة.

(٢٠)

School of Oriental and Ifrican Studies of London, Library Catalque . A. 31 oe. 1963 Vol. 1.p.347

(٢١) مختصر مطالع السعود: المقدمة.

(٢٢) **حمد الجاسر** «رحلات» ط ١، ص ٢١٣ الرياض (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

(٢٣) **محمد بن محمود بن أحمد** بن محمد التركزي الشنقيطي، ولد في شنقيط (موريتانيا) وانتقل إلى المشرق فأقام بمصر ورحل إلى مكة فاتصل بأميرها الشريف عبدالله، وانتدبته حكومة الآستانة أيام السلطان عبـدالحميـد الثاني للسفر إلى أسبانيا، والاطلاع على ما فيها من المخطوطات العربية وإعلامها بما ليس منه في مكتباتها بالآستانة فقام بذلك، سافر إلى المدينة فلم يكن على وفاق مع علمائها فطلبوا إخراجه، فرحل إلى مصر حيث اتصل بالشيخ محمد عبده، من أهم أعماله العلمية تصحيحه لبعض الأوهام الواقعة في الطبعة البولاقية من الأغاني فنشرت تصحيحاته بكتاب سمى تصحيح الأغاني، توفى (سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤) انظر «الأعلام» ٧/٣١١ـ٣١٢.

(٢٤) مختصر مطالع السعود: المقدمة.

(٢٥)

Carlo Landberg cataloque de manuscripts arabes provent dune bibliotheque, el-median leide. e. j. brill, 1883 P 90

(٢٦) رحلات: ٢١٣

(٢٧) **السلطان عبدالحميد الثاني** تولى خلافة الدولة العثمانية في الفترة ما بين ١٨٧٦م ـ ١٩٠٩م. انظر أحمد عبدالرحيم مصطفى «أصول التاريخ العثماني» ط ١ ٢٢٠ دار الشروق ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٢٨) **كان عدد الأعضاء** الذين اشتركوا في تلك الدورة من مؤتمر المستشرقين ٦٤٦ عضوا، من بينهم «الشيخ ابن عبدالله» قاضي تلمسان والشيخ «محمد محمود الشنقيطي» والبارون دى كريمر النمساوي، وبروكش باشا الألماني الذي كان ناظرا لمدرسة اللغات القديمة بمصر، وأمكس موللر من أساتذة أكسفورد وكونوال الروسي مدير كتبخانة دار المعارف بقازان. ومن البحوث التي ألقيت في المؤتمر: تاريخ الحكماء لابن القفطي، ومعجم الأدباء لياقوت، وفهرست للمخطوطات العربية، وأصول الحديث وكيفية الكلمات المركبة في اللغة العربية، وكتاب عجائب الهند وفلاسفة العرب الذين كانوا مع فردريك الثاني في صقلية، وكيفية النطق بالكلمات المصرية القديمة واستكشاف طرق المقاييس عند قدماء المصريين. ولقد أخرج محمد أمين فكري «بك» كتابا عن هذا المؤتمر حيث كان والده «عبدالله فكري» رئيسا للوفد العلمي المصري في هذا المؤتمر وقد سمى كتابه هذا «إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا» مطبعة المقتطف بمصر ١٨٦١.

انظر محمد خلف الله أحمد «معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها ص ٥٥_٥٦ القاهرة ١٩٦١.

(٢٩) **مستشرق سويدي** ولد سنة ١٨٤٨ أمضى في الشرق سنوات عديدة، بدأ انتاجه بكتاب عن الأمثال والأقوال الشائعة في ولاية سوريا، قضاء صيدا الذي صدر بالفرنسية ١٨٨٣م في ليدن، وتلاه بتحقيق ديوان «أبي محجن الثقفي» ١٨٨٦ وديوان «زهير بن أبي سلمى» ١٨٨٩م في مجموعة بعنوان طرف عربية وقد اتجه لاندبرج كذلك إلى دراسة لهجات جنوب الجزيرة العربية ـ ليدن، بريل، ١٩٠١ ـ ١٩١٣، وفي السنوات الأخيرة من عمره كرس نفسه للعمل في «قاموس وطني» أي قاموس للهجة وطنية في جنوب الجزيرة العربية، وقد أصدر منه الجزء الأول في ١٩٢٠ والثاني في ١٩٢٣م وتوفى قبل ان يصدر الجزء الثالث وهو الأخير وكان قد أعده للطبع فقام «زترسين» بطبع هذا الجزء الذي خلفه «لاندبرج» بعد وفاته كذلك توفي «لاندبرج» قبل أن يطبع كتابا في معجم لغة بدو عنزة. فتولّى «زترستين» طَبعَه في عام ١٩٤٠م.

وفي ميدان التاريخ الإسلامي، نشر لاندبرج كتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي» عماد الدين الأصفهاني ـ ١٨٨٨م، وقد توفى «لاندبرج» سنة ١٩٤٢م، انظر عبدالرحمن بدوي «موسوعة المستشرقين» ط ١، ٣٥٠_٣٥١، بيروت ١٩٨٤م.

وفي الأعلام ٦/٦٦، أنه نشر «رسالة التنبيه على غلط الجاهل والنبيه» لابن كمال باشا.

(٣٠) **ويؤكد عدم حضور** التركزي لذلك المؤتمر، أحمد الأمين الشنقيطي حيث ذكر «أن السلطان بعث إليه بأن يتهيأ للسفر فقال: لا حتى تعطوني مكافأة أتعابي فغضب عليه السلطان، وأمره بالسفر إلى المدينة» انظر «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» ط ٣، ٣٩٣ القاهرة ١٣٨٠ هـ: ١٩٦١م، بينما يدرج محمد خلف الله أحمد اسمه ضمن قائمة من حضر ذلك المؤتمر من العلماء والمفكرين: انظر «معالم التطور» ٥٥.

(٣١) **انظر**: محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي «الحماسة السنية الكاملة المزية في الرحلة العلمية الشنقيطية التركزية» ١/٦ القاهرة ١٣١٩هـ.

(٣٢) **محمد عبده بن حسين خيرالله** من آل التركماني، مفتى الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح في الإسلام، ولد في شبرا من قرى الغربية بمصر سنة ١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩ وتوفى بالإسكندرية سنة ١٣٢٣/١٩٠٥م ودفن في القاهرة، انظر «الأعلام» ٧/١٣١.

(٣٣) الحماسة السنية: ١/٢١_٢٢.

(٣٤) مختصر مطالع السعود: المقدمة.

(٣٥) NUMBER : NE B 892-7,B19

(٣٦) **لقد تكرم الزميل إبراهيم ولد وله** الطالب بقسم الدراسات الشرقية بجامعة مانشستر بترجمة هذه المقدمة من اللغة الفرنسية إلى اللغة الإنجليزية، وقد قمت ـ بتوفيق الله ـ بترجمتها إلى اللغة العربية.

(٣٧) **ابـو محمد عبدالله الطيب بن عبدالله** بن أحمد بن علي بامخرمة، مولده سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٥م وتوفى سنة ٩٤٧ هـ/١٥٤٠م.

انظر: أيمن فؤاد سيد «مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي» ص ٢٠٥ ـ ٢٠٨ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية القاهرة ١٩٧٤، وقد اثبت لاندبرج له من المؤلفات في فهرسة «قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر» رقم ٢٣٢، و «رحلة لبعض اليمنيين إلى داخل أفريقيا» رقم ٢٣٥.

(٣٨) ورد في الفهرس ذكر ديوان الأعشى الكبير رقم ٣٠٢.

(٣٩) **لقـد اثبت** «لانـدبرج» في فهرسه نسختين من كتاب «جمهرة أشعار العرب» لابن أبي الخطاب القرشي وهما تحت رقم ٣١٠، ٣١١.

(٤٠) **من المخـطوطات** التي تضمنهـا الفهـرس في تاريخ مكة، «شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام» للفاسي، رقم: ٢٨٩. وكتاب «أخبار مكة» لأبي الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي رقم ٢٩٩، وكتـاب «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» لقطب الدين النهروالي، رقم ٢٩٠، والجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها، وبناء البيت الشريف» لمحمد جار الله بن ظهيرة المكي رقم ٢٩٦.

(٤١) **ورد في** الفهرس ذكر «الجزء الثالث من تاريخ الحافظ الذهبي» رقم: ١.

(٤٢) **كتـاب يوسف الحـافظ المزي**، المسمى «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» وهو معجم مفهرس لمسانيد الصحابة والرواة عنهم، وموسوعة علمية لجميع أحاديث الكتب الستة الصحاح، تعليقات ابن حجر العسقلاني:

Gustav Meise Is Reference Literature To Arabi Studies, 1978, P 124

(٤٣) **مصطفى بن عبدالله جلبي** المعروف بحاجي خليفة المتوفى سنة ١٠٦٧/١٦٥٧، وكتابه «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» انظر المصدر السابق: ٤٤.

(٤٤) C. Landberg Preface. VI-VIII

(٤٥) مختصر مطالع السعود، المقدمة.

(٤٦) الأعلام: ١/٣٥٧.

(٤٧) **محمود عبدالوهاب** الرحالة أمين الحلواني/مجلة المنهل، ج ١، ١٨٦ـ١٨٧، السنة الثالثة عشر، ربيع الثاني ١٣٧٢هـ، يناير ١٩٥٢م.

(٤٨) **محمد بن حسن نصيف**، ولد بجدة سنة ١٣٠٠هـ، عنى بنشر مفيد الكتب وتوزيعها مجانا على طلاب العلم، كما شارك بمقالاته الدينية والتاريخية والأدبية في صحافة المملكة العربية السعودية، وصحافة العالم العربي والإسلامي، وكانت مكتبته التي انتقلت فيما بعد إلى ملكية جامعة الملك عبدالعزيز بجدة مرجعا للمستنيرين والباحثين، وقد توفى ـ رحمه الله ـ في مدينة الطائف سنة ١٣٩١/١٩٧١ ودفن في جدة.

انظر: عبدالقدوس الأنصاري «موسوعة تاريخ مدينة جدة» ط ٢، ٣٤٩ـ٣٥٠، جدة ١٤٠١هـ/١٩٠م.

أمين بن حسين الحلواني
بين الأسطورة والواقع

*** لا شك أن «الحلواني» عاش في المدينة، وتنقل بين مصر، والهند، وهولندا، ثم بلاد الشام التي يقال إنه توفى بها، ولكن السؤال الذي ظل يبحث عن إجابة جازمة لها أهمية كبرى في معرفة هذه الشخصية، هو صلته بأسرة «الحلواني» التي يعيش بعض أفرادها ـ إلى الوقت الحاضر ـ في المدينة المنورة، وإذا كان الشيخ حمد الجاسر، يذكر أن «الحلواني» كان يسكن في دار مطلة على حديقة العينية(١)، فإن لهذه المعلومة دلالتها الهامة، حيث إن أسرة من آل الحلواني، وهي أسرة الشيخ عمر محمود حسن حلواني ـ رحمه الله ـ التي عرفت أخيراً، أنه ابن أخي الشيخ أمين، الذي نحن بصدد دراسة شخصيته.

هذه الأسرة كانت تسكن في دار تقع في منتصف شارع العينية، والذي أزيل لصالح توسعة المسجد النبوي قبل حوالي عقد من الزمن، وبالتحديد خلف مكتبة ضياء المعروفة لبيع الكتب والصحف والمجلات، وكنت ألحظ في تلك الناحية أثراً لبستان قديم يدل عليه وجود بقايا من النخل، والشيخ عمر حلواني الذي عرفتُه ـ شخصيا ـ في مطلع حياتي، كان من أعيان المدينة، كما كان والده الشيخ محمود ـ رحمه الله ـ رئيسا لبلدية المدينة ـ في أواخر العصر العثماني ـ كما أخبرني بذلك فضيلة الشيخ جعفر فقيه، ثم أصبح ابنه الأستاذ «محمود» والمسمى باسم جده، مساعدا لرئيس بلدية المدينة لفترة من الزمن، وهذا يدفعنا إلى القول إن «أمين الحلواني» الذي كان يدرس بالروضة الشريفة، في مطلع القرن الرابع عشر الهجري من أسرة لها مكانتها في بلد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خصوصا إذا ما علمنا، أيضا، أن والده كان من الشخصيات البارزة في عصره، فقد أوفده الشريف «عبدالله ابن عون» أمير مكة سنة ١٢٧٩هـ، في مهمة رسمية إلى أمير نجد ـ آنذاك ـ المرحوم فيصل بن تركي، ولقد دون حسن الحلواني، حسب رواية ابنه «أمين» انطباعاته عن هذه الرحلة في كتاب خاص.(٢)

هذا الانتساب إلى أسرة عرفت بالعلم، والفضل، والمكانة، يدفع عن «الحلواني» تهمة الحصول على الكتب التي ابتاعتها منه مكتبة «ليدن» سنة ١٣٠٠هـ ـ ١٨٨٣م بطريقة غير مشروعة، ولقد ضمني لقاء كريم في منتصف العام الماضي بمعالي الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي، فذكر لي أن فضيلة الشيخ حمد الجاسر يميل إلى هذا الرأي، وإنني آمل أن يوضح أستاذنا الجاسر كل ما يتصل بهذه القضية، وخصوصاً أنه زار ليدن، عام ١٣٩٤هـ، مما يعكس اهتمامه الخاص ـ حفظه الله ـ بالمخطوطات التي نقلها «الحلواني» من المدينة إلى القاهرة، ثم إلى هولندا.

** على أنني أود أن أضيف ـ أيضا ـ أنه في حالة افتراض حصول «الحلواني» على هذه الثروة العلمية من إحدى مكتبات المدينة فإنه يتعين بالتالي أن يكون «الحلواني» قد أسند إليه عمل يتصل بنسخ المخطوطات، أو مراجعتها، مدة إقامته بالمدينة، وهو أمر لم تشر إليه المصادر التي عنيت بالحلواني، وحياته العلمية، أما القضية الأخرى التي وقف عندها بعض الباحثين فهي صلة الحلواني بالمستشرقين الهولنديين، وعلى وجه خاص «بكارلو لندبرج» و «سنوك هورخرنيه».

أما الأول منهما، والذي أقام مدة بمصر لاضطلاعه بمهام سفارة دولة السويد، فلقد كان على صلة بالعلماء المسلمين، ومن بينهم العلامة محمد بن محمود بن التلاميد الشنقيطي (١٢٤٥ـ١٣٢٢) الذي عاش فترة من حياته في المدينة المنورة، كان فيها على صلة وثيقة بأمين الحلواني، ولا يستبعد أن تمثل شخصية «التركزي» حلقة الوصل التي ربطت بين الحلواني و«لندبرج» في صداقة علمية امتد أثرها إلى تصنيف «لندبرج» لمكتبة «الحلواني» التي اشترتها منه مؤسسة «بريل» في فهرس وضعه المستشرق المذكور باللغة الفرنسية، سنة ١٨٨٣م في مدة زمنية تقل عن شهر واحد، مما تسبب في ورود أخطاء عديدة وصفتها رسالة القيم (CURATOR) على القسم الشرقي بمكتبة «بريل» الباحث (J.J. WITKAM) والموجه لي بتاريخ ٦ يناير ١٩٨٦م، بأنها أخطاء تصعب على الحصر، وكان هذا التصنيف غير الدقيق، وراء لجوء المؤسسة إلى تصنيف جديد لأسماء مخطوطات مكتبة «الحلواني» بصورة أدق ضمن فهرس عام صدر سنة ١٨٨٨م بإشراف الباحثَيْن (M.J. DEGPEJE) و (M. TH. HOUTSMA) .

ثم أخيراً ضمن عمل الباحث (P.VOORHOEVE) والذي صدر سنة ١٩٨٠م، تحت عنوان (THE HAND LIST, OF, ARABIC MANUSCRIPTS) قائمة المخطوطات العربية.

وبإمكان الراغب في معرفة جميع المعلومات الجديدة الخاصة بمخطوطات «الحلواني» الرجوع إلى الصفحات ٧٠٨ـ٧٢٧ من الفهرس الأخير.

** أما العلاقة الأخرى التي أقامها الشيخ الحلواني - خلال حضوره مؤتمر المستشرقين (ORIENTALIST CONGRESS) سنة ١٨٨٣م، فهي مَعَ المستشرق والرحالة الهولندي المعروف «سنوك هوخرونيه (١٨٥٧ - ١٩٣٦م) وتشير رسالة أمين القسم الشرقي بمكتبة بريل (MITKAM) التي أشرت إليها - آنفاً - أن المكتبة تحتفظ بصورة للشيخ «الحلواني» وعليها إهداؤه الخاص للمستشرق «سنوك» ولقد قام هذا الأخير بترجمة انطباعات MEMOIR صديقه «الحلواني» عن مؤتمر المستشرقين السادس من اللغة العربية إلى اللغة الهولندية، كما أن هذه الصورة القلمية تحتوى - أيضاً - على رسم للشيخ «الحلواني» نفسه، ويذكر الأستاذ المطبقاني أن «سنوك» قام بكتابة ترجمة الشيخ «الحلواني» لدائرة المعارف الإسلامية، ولكنني لم أعثر على هذه الترجمة رغم أني بحثت عنها ضمن عدد من المواد التي تم وفقها تصنيف الدائرة.

ولقد كانت العلاقة بين «الحلواني» و «سنوك» مثار تساؤل من بعض الباحثين، وخصوصاً أن رحلة «سنوك» إلى مكة تمت بعد سنة من لقائهما في «ليدن» فلقد وصل الرحالة الهولندي إلى جدة في أغسطس ١٨٨٤م، وأقام بها إلى فبراير ١٨٨٥م، تحت اسم مستعار، هو عبدالغفار(٢)، وأقام بمكة طوال ستة أشهر كانت ثمرتها كتابه الرئيسي عن مكة: (MEKKA)

IN THE LATTER, PART OF THE 19th CENTURY, DAILY LIFER, CUSTOMS, AND, LEARNING

«مكة في الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر» الحياة اليومية، العادات المعرفة، وبين يدي طبعة الكتاب الإنجليزية، والتي قام بترجمتها J.H.MONAHAN السفير السابق بجدة، والتي صدرت عن مؤسسة «بريل» في ليدن، ومؤسسة «لوزاك» في لندن سنة ١٩٣١م.

** وكتاب «سنوك» هذا ربما كان له ما يميزه عن كتب الرحالة الغربيين الأخرى، وهو اهتمامه بحلقات التدريس في الحرم المكي الشريف، التي يذكر أنها كانت في فترة إقامته بمكة تتراوح بين خمسين إلى ستين حلقة، وأنه كان يتم فيها تدريس السيرة النبوية بصورة علمية متميزة تعتمد على مقارنة الروايات ونقدها، واعتماد القوي منها، كما دون مشاهداته عن المناسبات العلميــة التي كانت تعقــد خاصــة لإجـازة الطلاب القــادمين من العــالم الإسلامي، في علوم الشريعة.(٤)

ولعل أستاذنا الفاضل الدكتور عبدالوهاب أبو سليمان، الذي أخبرني قبل فتــرة، بأن كتاب «سنوك» تتم ترجمته في جامعة أم القرى، تحت إشراف الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي، لعله يزودنا نتيجة لاهتمامه الخاص بدور الحرم المكي الشريف في نشر التعليم، في كثير من أرجاء العالم الإسلامي، بمعلومات أخرى تخص «سنوك» وغيره من الرحالة الغربيين، الذين تمكنوا من زيارة المناطق المقدسة في مكة والمدينة، مثل الرحالتين الإنجليزيين سير ريتشارد بيرتن وايلدون روتير.

وكما اختلف الباحثون حول جوانب عديدة من حياة «الحلواني» العلمية، والتي تدل على مثابرته، وطموحه، فإنهم اختلفوا كذلك حول الظروف التي تمت فيها وفاته، فبينما يرى بعض الباحثين أن وفاته كانت طبيعية في بلاد الهند سنة ١٣١٦هـ يذكر باحث آخر أنه توفي مقتولا على يد أهالي مدينة طرابلس بالشام.(٥) ويذكر مرجح هذا الرأي الأخير أنه استقى معلومات من فضيلة الشيخ محمد نصيف ـ رحمه الله ـ الذي كان على صلة كبيرة بعلماء عصره في العالم الإسلامي.

الاحـالات:

(١) رحلات، حمد الجاسر، ط، الرياض، ١٤٠٠ـ١٩٨٠، ص ٢٠٣.

(٢) مختصر كتاب «مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داوود»، لأمين بن حسن الحلواني، «تحقيق محب الدين الخطيب»، القاهرة، ١٣٧١هـ، ص ١٠٥ـ١٠٦.

(٣) موسوعة المستشرقين، لعبدالرحمن بدوي، ط ١، ١٩٨٤م، بيروت، ص ٢٤٥ـ٢٤٧.

(٤) MEKKA, in, the, Latter, Part of, the, 19th Century, P.P. 164, K87, 237

(٥) الرحالة أمين الحلواني، محمود عبدالوهاب، مجلة المنهل، ج ١٨٦ـ١٨٧، السنة الثالثة عشر، ربيع الثاني ١٣٧٢هـ يناير ١٩٥٢م.

رائد الكلمة ومبدع القصيد
السيد عبيد عبدالله مدني

(١)

إن صدور ديوان المدنيات لشاعر المدينة المنورة السيد عبيد مدني - رحمه الله - هو تكريم لذلك الرائد الذي كان إبداع الشعر أحد مواهبه المتعددة ولعل الناظر في هذا الديوان يستطيع أن يجزم بأن صاحبه لم يكن ناظماً ولكنه الشاعر الذي غنى لسكون الليل وبكى لفقد الحبيب وتشوق لمرابع الصبا التي يزيدها بهاء ذلك التاريخ الحافل الذي شهدته في العصور الإسلامية الغابرة.

** فالشاعر الذي يطيل الوقوف أمام قصر «سعيد بن العاص» بوادي العقيق ويرى في أطلاله روعة وجلالا وفي حصباء الوادي الذي يحتضنه نضارة وجمالا إنما ينفذ من ذلك الجلال الذي استجمعه قلبه وتلك النضارة التي تضوعت بها روحه إلى أعماق التاريخ تمثل أولئك الرواد. الذين صنعوا أحداثه ويريد أن يستنطقهم فلا يحظى بما يريد، ولكأن نفسه الشاعرة تبحث في ذلك الاستنطاق عن السر الأبدي لهذه الحياة الذي تفردت بمعرفته القدرة الإلهية العظيمة.

** ولئن استطاع الشاعر أن يقف عند تلك المآثر الإسلامية فيصور لنا مدى إحساس نفسه بها وشغفه بتاريخها المجيد الذي هو تاريخ لكل فرد من أفراد أمة الإسلام والعروبة، فإن شاعرنا استجاب لتلك الأحداث التي عاصرها منذ حلول الحرب العالمية الأولى حتى تاريخ وفاته في نهاية عام ١٣٩٦هـ وهذا دليل على أن السيد عبيد - رحمه الله - لم يكن يعيش في صومعة فكرية كما يظن البعض وهذه قصائده التي دعيت بالوطنيات في الجزء الأول من الديوان تُرينا تلك النفس الكبيرة التي كان يحملها الشاعر بين جنبيه فهي التي تفرحها تلك المواقف الإيجابية التي تتوق لأدائها كما يؤلمها تلك الصور السلبية التي تقع الأمة ضحيتها بسبب بعض الاجتهادات الفردية الخاطئة ومع هذا فإن الشاعر ينحو في معالجته لهذه المواقف منحى

الحكيم الذي صقلته تجارب الأيام ولا يتردد في أن يستثمر تجربته تلك استثمارا تلمح من خلاله تلك المعاني القوية التي كان الشاعر يؤمن بها.. فلنستمع إليه مخاطبا شيخه محمد العمري - رحمه الله - في شأن الأمة الإسلامية، وهي أبيات من قصيدة نظمها في عام ١٣٤٣هـ.

فيا شاعر الشرق المجيد ومن سمت
به الضاد مجدا واستوت منه في كهف
تدارك رعاك الله شعبا مضيعا
تعمق فيه الجهل وانحط في الخسف
تدارك رعاك الله شعبك إنه
يهيم به التضليل في المهمه القفف
يجوب فيافي الجهل في حالك الدجى
ورائده الأهواء في المظلم العسف
يخبط فيها خبط عشواء هائما
فمن سبسب سهل إلى هضبة زلف
ويسبح في بحر الغواية عائما
يقلبه التيار بالزفزف العصف
فثر فيه واترك لليراع سبيله
فقد بات حينا لا يبين ولا يخفي
وأمطر به في القوم نارا وإن هُمُ
أثابوا إلى الحسنى فويلا من العطف
وبيّن لهم معنى الحياة فإنها
نأت عنهم لكن يطل من السجف
فذاك (هيجو) قد أهاب بنهضة
أقام بها الشعب الفرنسي من الضعف
نهوضا فقد طال السكوت وهذه
أعاصيره تسفى على الشعب ما تسفي
وثابر ولا يثبط نهوضك دونه
فقد يسلم المفؤود من حافة الحتف

*** رحم الله أبا عدنان فما أجدرنا اليوم بعد انقضاء أكثر من ستين عاما

على إنشاء بعض قصائده أن نصغي لصوته الشعري المتجدد والذي يلتزم بقضـايا أمته ويعيش همومها وأحداثها، وذلك الفرق بين قصيد يموت بعد ولادته وآخر يردده - بدون ملل - فم الزمان لأبنائه.

(٢)

تطرقت في الموضوع السابق لشاعرية السيد عبيد، ومدى التزامه بقضايا أمته المصيرية والتي عبر عنها بوضوح وصدق في تلك القصائد التي دعاها ناشـرو الديـوان من أبنـاء السيد عبيد نفسه بالوطنيات ولقد عرفت بيئة المدينة المنورة منذ العصر الجاهلي حتى وقتنا الحاضر بكثرة الشعراء، إلا أن الدارس للإنتاج الشعري الذي أبدعه شعراء المدينة المنورة منذ القرن الثاني عشر الهجري بإمكانه أن يقف على عدد من تلك القصائد التي تسعى للتعبير عن القضايا التي تهم الأمة الإسلامية والعربية.. ويعتبر السيد جعفر محمـد البيتي (١١١٠/١١٨٢هـ) الذي نظم ملاحمـه الشعرية في وصف أحوال المجتمع المدني وتحذير الخلافة العثمانية من مغبة التساهل تجاه الأراضي المقـدسـة، أول رائد لهذا الفن الشعري القوي.. ولعل الشاعر إبراهيم الأسكوبي (١٢٦٤/١٣٣١هـ) قد تأثر بسلفه البيتي وربما وجدنا آثارا لذلك الشاعر في قصيدته المشهورة التي نظمها قبل الحرب العالمية الأولى ووجهها إلى حلفاء الدولة العثمانية صيحة إرشاد وتنبيه من الأعداء الذين لا يكفون عن السعي للنيل من الإسلام وأهله.. ثم كانت قصائد الشيخ محمد العمري (١٢٨٢/١٣٦٥هـ) التي يخاطب فيها بعض دول الاستعمار الأوروبية التي عانت من ظلمها وتعسفها كثير من الشعوب الإسلامية لزمن غير قصير.. ولقد كان الشاعر العمري - رحمه الله - رافدا فكريا مؤثرا في حياة السيد عبيد - رحمه الله - كما يذكر الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري - رحمه الله - في المقدمة التي كتبها للديوان في عام ١٣٧٧هـ.. فلا غرابة إذن أن نجد عند محاولتنا لقراءة وطنيات السيد عبيد ملامح من ذلك الموروث الشعري القديم ابتداء من البيتي وانتهاء بالعمري.

وربما أدى إلى ذلك التأثر قراءة السيد عبيد لذلك الموروث حيث اشتملت مكتبته على عدد من الدواوين الشعرية المخطوطة ومن بينها مخطوطة ديوان السيد البيتي والتي تمكنتُ من الاطلاع عليها بعد وفاة السيد عبيد كما اطلع

عليها الأستاذ الناقد عبدالرحيم أبوبكر ـ رحمه الله ـ ولعله أفاد منها فيما كتبه عن البيتي في كتابه (الشعر الحديث في الحجاز) ولقد علمتُ أخيراً من السيد عدنان مدني أنه عثر في مكتبة والده على النسخة الأصلية لديوان الشاعر إبراهيم الأسكوبي وهي النسخة التي اعتمد عليها السيد عبيد في جمع شعر الأسكوبي وتدوينه.. أما النسخة التي يحتفظ بها السيد علي حافظ في مكتبته بجدة فلقد اعتمد في تدوينها على نسخة السيد عبيد كما علمت من أخيه الفاضل السيد عثمان.

ولئن أدت العوامل المكونة للاتجاه الفكري للشاعر إلى تأثره بأولئك الشعراء المشهورين من شعراء المدينة المنورة وما نتج عن ذلك من توجيه للإبداع الشعري عنده تجاه بعض المسارات التي تميزت بها الحركة الشعرية في المدينة المنورة لعدة عصور متلاحقة فإن إسهاماته النقدية المحدودة تعطينا بعض الدلائل على مدى إعجابه بأولئك الشعراء.. ولقد كان لذلك الإعجاب إيجابياته التي تمثلت في الحفاظ على جزء من التراث الأدبي ثم فيما أفادته الحركة الأدبية في بلادنا من هذا التراث.. فلقد كانت كتابات السيد عبيد النقدية مرجعا لأولئك الذين اهتموا بدراسة أدب الجزيرة العربية في العصر العثماني.. ولعل لنا عودة أخرى إلى هذا الأديب الذي وصفه الأستاذ عبدالعزيز الربيع ـ رحمه الله ـ يوما بأنه (أديب متعدد المواهب)..

أديب أهمله بنو قومه
الأستاذ عبدالسلام هاشم حافظ

ليس غريبا أن يولد الناس شعراء في بلد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فلقد كانت المدينة موطنا للشعر منذ العصر الجاهلي فبالإنشاد الذي عرف بأنه سابق للكلمة الموزونة أو رديف لها ولاحق لبدايتها بذلك الإنشاد أرشد بنو النجار النابغة إلى موضع الإقواء في شعره وبالإنشاد - أيضاً - استقبلوا فرحين هادي الأمة - صلى الله عليه وسلم - في قباء وكان منهم هتاف الروح الذي تجاوبت معه كل ذرات الوجود وفي كلماتهم تجسد الحب الذي صنع المجتمع الإسلامي فكان كالبنيان المرصوص والجسد الواحد الذي لا يصيبه وهن ولا يعتريه باطل ولا تخترقه الأكاذيب والتخرصات.

وحتى عندما خفت صوت الكلمة الشاعرة إلى حين في بعض المواطن من العالم العربي كانت المدينة تمثل الموطن الذي يحتمي به الشعر من عوائد الدهر ونوائبه وتتحصن موسيقى الكلمة بجباله الشاهقة وأطمه المنيعة ويولد بين ظلال نخيله الصوت الحسن والوجدان الصادق وما علينا إلا أن نعود إلى حقبة القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين حيث كان الأدب يتجافى عن التجربة الحية والكلمة تثقلها قيود البديع ويحد من حركتها جفاف المصطلح حيث توارت الفصحى التي نزلت بها آيات القرآن وتحدث بها بلغاء العرب وبلّغوا بها رسالة الإسلام ودعوة الحق، في تلك الحقبة التي كان يبحث فيها الناس عن شعر يجسد واقع الأمة ويبعث في أبنائها تلك الروح التي اعتراها الخمول وذهب بانطلاقتها التخلف والجمود في الحقبة نفسها عرفت المدينة من يجلس للدرس بين سواري مسجدها صباحا وينشد الكلمة الشاعرة في منتديات الأدب فيها ليلا ولقد خلدت «أبارية» برادة و «أنورية» العشقى روائع الشعر ونفائسه وإذا ما عاد الدارسون اليوم إلى نماذج من شعر عبدالجليل برادة وإبراهيم الأسكوبي ومحمد العمري فإنهم لن يترددوا في القول إن التجديد في الشعر في العصر الحديث عرفته جزيرة العرب كما عرفته ديار مصر والشام وغيرها من أقطار الإسلام والعروبة.

وكان الوريث لهؤلاء الثلاثة الذي ذكرنا هو السيد عبيد عبدالله مدني - رحمه الله - وباستثناء الومضات النقدية التي دونها الأستاذ عبدالله عبدالجبار في دراسته القيمة عن الأدب السعودي حول إنتاج هذا الرائد إلا أن صاحب المثنيات المعروفة يظل ينتظر الفارس المرتقب الذي يكشف عن قيمة إنتاجه الشعري وخصوصياته ودوره في دعم مسيرة الأدب السعودي ثم جاء من بعده جيل ساهم في دفع حركة الشعر في العالم العربي نحو آفاق الإبداع ومجالات التجديد وهو جيل لم يتوقف عند آثار الماضي مجترا تجارب الآخرين ومحاكيا لأساليبهم ولكنه أيضا لم يتنكر لتراثه وينقطع عن جذوره كان من هؤلاء عبدالسلام حافظ ومحمد هاشم رشيد وماجد الحسيني وعبدالرحمن رفه ومحمد العامر الرميح ومحمد العيد الخطراوي وحسن الصيرفي وخالد رجب وكان هذا الأخير عبقرية شعرية فذة إلا أن شعلة الحياة انطفأت فيه فجأة كما أخبرني بذلك أستاذنا الفاضل «محمد حميدة» والذي كان زميلا لهذا الشاعر في المرحلة الابتدائية ولعل في كتاب المرحوم الأستاذ عبدالعزيز الربيع «ذكريات طفل وديع» ما يشير إلى آثار هذه العبقرية التي ربما كانت في بروزها واختفائها المفاجىء تتشابه في جوانبها مع عبقرية القاص «محمد عالم أفغاني» أحد أعضاء الأسرة الأدبية بالمدينة والذي كان - رحمه الله - له مع زميله الآخر على رضا حوحو دور متميز وجدير بالدراسة في نشأة فن القصة في بلادنا كما أشار إلى ذلك معالي الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي في إحدى دراساته النقدية التي سبق له أن نشرها بمجلة المنهل الغراء.

ولكن عبدالسلام حافظ لم يتوقف إبداعه عند فن الشعر فلقد أخذه طموحه إلى عوالم أخرى من الكتابة منها التاريخ والسيرة النبوية والدراسة الأدبية والقصة أيضاً ففي التاريخ توجهت جهوده للكتابة عن جوانب من تاريخ المدينة وفي السيرة نجده يسبر أعماق الماضي ويتجول بين آثار عظمائه ليخرج لنا مصدرا علميا في سيرة سيد العظماء صلى الله عليه وسلم ولم يكن غريبا على هذا الرائد وهو الذي حلقت روحه في أجواء ذلك المقام البهي وتنسمت الشذى العبق بين مرابع الخير ومنازل الوحي أن يشارك بإحساسه وقلمه في تصوير هذا الماضي العظيم.

لم تحل الظروف بينه وبين المشاركة والتفاعل الإيجابيين فلقد كان قلمه

متدفقا ينبئوك عَنْ ذلك النبع الثّرّ الذي كان يختبيء في أعماقه وتنطوي عليه روحـه التي قاومت المرض حينا وصادقته حينا آخر ولم يحن أديبنا ظهره لعوائد الدهر ولكنه كثيراً ما توكأ على عصاه وهذا قدر المبدعين يتجول بين دور العلم ليبحث عن كتاب أو يحقق معلومة أو يشارك في ندوة علمية ولم يسقط القلم من بين يديه فلقد ظل وفيا للكلمة النظيفة حتى في تلك الظروف التي يظن الآخرون أن اليأس فيها تغلب على الأمل وأن الظلام قد يحول بين بزوغ الفجر وانتشار الضياء.

اليوم يرقد هذا الرائد على فراش المرض وهو الذي كان دائماً منتصب القامة مرفوع الرأس شامخ الأنف ولكنه قدر الله وإرادته والتسليم هو عقيدة المـوحـدين ودرع الصابرين وإنما عتبنا على أحباب لنا في نادي المدينة الأدبي عرفوا هذا الرجل عن قرب وعايشوه عن تجربة ولكنهم نسوه في غمرة شؤون هذه الدنيا الفانية أما وإنهم لم يكرموه فقد ظلموه ولعلهم في يوم يكون قريبا أن ينصفوه.

الشيخ جعفر بن إبراهيم فقيه

نسبه وأسرته:

** ينتسب الشيخ جعفر بن إبراهيم فقيه إلى عائلة فقيه، التي كانت تقطن مكة المكرمة، وذكر منهم مؤلف كتاب «نشر النور والزهر» الشيخ «سليمان بن أحمد بن جعفر فقيه» (١٢٥٧هـ - ١٣١٥هـ) وأشار إلى أنه قام بالتدريس بالمسجد الحرام واشتغل بالخطابة والإمامة لمدة من الزمن، ثم ذكر - في آخر ترجمة سليمان هذا - أن: بيت الفقيه الموجودون بالمدينة المنورة هم أولاد أخيه الشيخ مصطفى، فإنه قد تديَّرها ومات بها.(١)

ولا نجد مؤلف كتاب «تحفة المحبين والأصحاب فيما للمدنيين من أنساب» يذكر شيئاً عن أسرة آل فقيه بالمدينة، وهو أمر طبيعي، لأن انتقال جزء من الأسرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة قد تم بعد انقضاء القرن الثاني عشر، وهو الزمن الذي ألف فيه «عبدالرحمن الأنصاري» كتابه عن أنساب أهل المدينة المنورة.(٢)

ولادته ودراسته العلمية:

** وُلد الشيخ جعفر فقيه بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٠هـ، وطلب العلم في حلقات المسجد النبوي الشريف، ومنها حلقة الشيخ إبراهيم الطرودي، ومن زملائه في هذه الحلقة العلمية: السيدان علي وعثمان حافظ.

ثم انقطع التدريس في حلقات الحرم النبوي الشريف، لقيام الحرب العالمية الأولى، وبعد أن انقضت شؤون الحرب استأنف صاحب الترجمة دراسته في حلقة الشيخ عبدالفتاح أبو خضير، وكانت الدراسة في هذه الحلقة دراسة دينية فقهية ووقتها بعد صلاة العصر.

أما حلقة الشيخ «حميدة» فلقد كان يؤمها بعد صلاة الفجر لدراسة كتاب «الشفاء» للقاضي الفضيل بن عياض، وكان مكان هذه الحلقة بين بابي الرحمة والسلام بالمسجد النبوي الشريف.

وكان يؤم حلقة أخرى يقوم بالتدريس فيها عبدالرؤوف عبدالباقي، قرب

الحجرة النبوية، وكانت متخصصة في الحديث النبوي.

ومما درسه الشيخ جعفر في هذه الحلقة، كتاب «صحيح الإمام مسلم».

أما الدروس التاريخية فلقد كان يتلقاها من فضيلة الشيخ عبدالقادر شلبي ـ رحمه الله ـ في مدرسته التي كانت تقوم بحي ذروان[٣] وهو حي كان يقوم بالقرب من المسجد النبوي الشريف.

ويذكر الشيخ جعفر أنه استفاد كثيرا من دروس الشيخ الشلبي، الذي كان متخصصا في تاريخ المدينة، فلقد كان واحدا من العلماء الذين انتخبهم فخري باشا، قائد المدينة، لتدوين تاريخ المدينة النبوية.

أما بقية العلماء الذين تم انتخابهم فإن ذاكرة الشيخ جعفر تسعفه بأسماء المشايخ أحمد كماخي، وأبوبكر داغستاني، ونذير خاشقجي.

ولم يكتف الشيخ جعفر بالحلقات، التي كانت تنعقد في رحاب المسجد النبوي الشريف، بل كان يؤم بعض المجالس العلمية الخاصة، كمجلس الشيخ زكي برزنجي وابنه جعفر في دارهم الكائنة بباب المجيدي، ولقد كانت تدور بعض المناقشات العلمية والمناظرات الفقهية في مجلس آل البرزنجي هذا. وكان عدد كبير من الناس يؤم هذا المجلس العلمي.

مشاركاته وأعماله الوظيفية:

** في سنة ١٣٤٩هـ افتتح الشيخ جعفر مكتبة الإخاء في باب الرحمة، وكان التعاون قائما بين مكتبة الإخاء هذه، ومكتبة البابي الحلبي المشهورة في القاهرة، ومكتبة الشيمي في الإسكندرية.

وعندما بدأ مشروع التوسعة السعودية الأولى للحرم النبوي الشريف، في عام ١٣٧٠هـ تم تعيين الشيخ جعفر مديرا لمكتب بن لادن بالمدينة المنورة لشؤون التوسعة، وفي عام ١٣٧٢هـ أصبح فضيلة الشيخ صالح قزاز مديرا لهذا المكتب، وتم تعيين الشيخ جعفر مساعدا له، ولقد ظل الأخير في عمله هذا إلى أن انتهت العمارة في عام ١٣٧٥هـ.

وبعد انتقال الشيخ القزاز إلى مكة المكرمة للإشراف على توسعة الحرم المكي ـ أسندت أعمال المكتب ثانية للشيخ الفقيه، وظل في هذا العمل إلى سنة ١٣٨٢هـ، وهي السنة التي كلف فيها من قبل مديرية الأوقاف بمكة المكرمة بمهام المديرية العامة لمكتبات المدينة المنورة، ثم تم حصر الوظيفة

في الإشراف على شؤون المكتبة العامة حتى سنة ١٣٨٨هـ.

جهوده العلمية:

** قام الشيخ جعفر فقيه بالاشتراك مع الأستاذ هاشم دفتردار بتأليف كتاب عن توسعة الحرم النبوي الشريف، وضم الكتاب فصولا عن توسعات المسجد النبوي التاريخية، والأسباب التي دعت إلى التوسعة السعودية الأولى، وصدور الأمر الملكي الكريم بذلك، وعن المسجد النبوي الشريف قبل التوسعة، ثم عن المسجد النبوي الشريف بعد العمارة، التي ابتدأها الملك عبدالعزيز، وأتمها الملك سعود، ـ رحمهما الله ـ لتصبح المساحة التي انتهت بها توسعة المسجد النبوي الشريف هي ١٦٣٢٦م وتوضح أعمال هذه التوسعة خارطة خاصة بالتوسعة السعودية الأولى، كما يضم الكتاب فصولا عن مساجد المدينة المنورة وإصلاحها، وعن المستشفى الذي تم إنشاؤه بالمدينة، وأطلق عليه اسم: «مستشفى جلالة الملك عبدالعزيز» ثم عن مبنى الكلية الإسلامية، الذي تم تعميره ليصبح مقرا لمدرسة طيبة الثانوية.

وقد رعى خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبدالعزيز، رعاه الله، الذي كان عندئذ وزيرا للمعارف، مهمة استلام مبنى هذا الصرح العلمي.

كما تطرق الكتاب للمشروعات الكثيرة التي تمت في تلك الفترة في بلد المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومنها إنشاء خزانات ماء الشرب، وإنشاء محطة الكهرباء، وتعبيد طرق المدينة وإنشاء طريق جدة ـ المدينة، وإقامة السدود الزراعية العديدة.

كتاب خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم:

** وهو أحد مؤلفات مؤرخ المدينة نورالدين علي بن عبدالله السمهودي (٨٤٤ـ٩١١هـ) وقد ألفه المؤلف ـ كما يذكر الشيخ حمد الجاسر سنة ٨٩١هـ، وقد اختصر فيه كتابه «وفاء الوفاء» في نحو نصفه مع جمع مقاصده.(٤)

قد طبع الكتاب عدة طبعات، أولاها في بولاق سنة ١٣٥٨هـ(٥) ثم نجد طبعة أخرى لهذا الكتاب، وقد أشرف على طباعتها الشيخ جعفر فقيه، سنة ١٣٦٧هـ وقامت دار إحياء الكتب العربية بنشره، كما قام الشيخ جعفر نفسه

بنشر الكتاب للمرة الثانية في عام ١٤٠٣/١٩٨٣م. وهذه الطبعة بتعليقات والده الشيخ إبراهيم الفقيه ـ رحمه الله.

ولا بد من الإشارة إلى طبعة أخرى للكتاب نفسه قام بها المرحوم الشيخ محمد سلطان النمنكاني في دمشق، سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م وكَتَبَ الشيخُ حمد الجاسر مقدمة قصيرة لها، كما يذكر الشيخ الجاسر أن كتاب الخلاصة ترجم إلى اللغتين الفارسية والتركية.(٦)

ذكريات طيبة:

** كما نشر الشيخ جعفر، في عام ١٣٧٠هـ/١٩٥١م، كتابا للأستاذ هاشم دفتردار، عن أسرار الحج والزيارة، وتضمن عدة مباحث هامة، منها:

* عن عوالم المادة، وعوالم الروح.
* عبادة الخالق، وعبادة المخلوقات.
* لا وثنية ولا إشراك في الإسلام.
* لا خلاف بين العلماء في أصول العقائد والتشريع.
* خلاصة السيرة النبوية.
* أركان الإسلام.
* الحج.
* العمرة.
* الانساك الثلاثة: الإفراد والتمتع والقران.
* دار الهجرة.
* فضل دار الهجرة.
* أثر المسجد النبوي في أنفس الزوار.
* آداب دخول المسجد النبوي.
* مساجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في طيبة، كمسجد قباء، والجمعة، والقبلتين والإجابة، والراية، والسقيا، ومسجد بني ظفر، ومسجد المصلى، ومسجد الفضيخ.

الاحـالات:

(١) عبـدالله مرداد أبـوالخير: المختصر من كتاب «نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشـر» ـ اختصار وترتيب محمد سعيد العامودي، وأحمد علي، مكة، ط ١، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م، ج ١، ص ١٦٨ـ١٦٩.

(٢) يذكـر الأستـاذ محمد العروسي المطوي، محقق كتاب «التحفة» أن وفاة الأنصاري كانت في عام ١١٩٥هـ، انـظر: تحفـة المحبين والأصحاب فيما للمدنيين من أنساب. تونس، ط ١، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م (المقدمة).

(٣) ينطقه عامة أهل المدينة «بضروان» وقد هدم هذا الحي لصالح التوسعة السعودية الأخيرة.

(٤) محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر، الرياض ط ١، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م (المقدمة).

(٥) رسائل في تاريخ المدينة، بتقديم حمد الجاسر، الرياض، ط ١، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م، ص ٣٥.

(٦) نفس المصدر السابق.

القسم الثاني

الدّراسَات التاريخية

«ابن شبه» بين الدكتور الغنام والأستاذ فهيم شلتوت

*** بجهود السيد حبيب محمود أحمد، وتحقيق الأستاذ فهيم محمد شلتوت تم مؤخرا إخراج كتاب «تاريخ المدينة المنورة» لأبي زيد عمر بن شبه النميري، البصيري، محققاً في أربعة أجزاء، وتم طبعه في دار الأصفهاني للطباعة بجدة.

*** يذكر الأستاذ شلتوت، في مقدمة الكتاب «أن هذا الكتاب ظل مجهولا، لا نعرف عنه إلا اسمه، ولم يذكر ـ بروكلمان ـ أن مكتبة، في العالم تحوي نسخة منه، وكان جل اعتقادتنا[1] فيما ينسب إلى هذا الكتاب على نقول السمهودي».[2]

*** وإثباتا للحقيقة العلمية ـ فلقد قام الدكتور سليمان محمد الغنام، الأستاذ المشارك بكلية الآداب بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة، بتحقيق الجزء الأول من المتبقى من كتابه «أخبار المدينة المنورة» تحت إشراف البروفسور «بوزورث» رئيس قسم الدراسات الشرقية بجامعة مانشستر بالمملكة المتحدة، ونال عليه درجة (الدكتوراه) من الجامعة نفسها، سنة ١٩٧٣م.[3]

وقد قدم الدكتور الغنام رسالته في جزءين: الأول: نص الجزء الذي حققه من المخطوطة، وينتهي بذكر فصل بني هاشم وغيرهم من قريش، وقبائل العرب، في أربعمائة وسبع وستين صفحة ـ باللغة العربية.

والثاني: دراسة علمية ـ باللغة الإنجليزية ـ تتضمن: حياة المؤلف ومؤلفاته.

دراسة مختصرة عن مؤرخي المدينة المنورة المتقدمين: تبتدىء بعبدالعزيز بن عمران الزهري المدني (ت ١٩٧هـ) وتنتهي بهارون بن زكريا الهجري (من أهل القرن الثالث والرابع الهجري).

* وصف المخطوطة وتأليفها.
* تاريخ نسخ المخطوطة وناسخها.
* جداول مختلفة للآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة، المصطلحات العلمية الواردة في نص المخطوطة.
* مختصر لمحتويات الكتاب.
* فهارس لشيوخ المؤلف، ورجال السند، والشخصيات وأسماء المواضيع.

مخطوطة الكتاب

** يشير الشيخ «حمد الجاسر» ـ إلى أنه لم يصل إلينا من كتاب «ابن شبة» إلا قطعة اطلع عليها السمهودي، ونقل عنها كثيرا، وهي ـ الآن ـ في مكتبة رباط مظهر في المدينة.(٤)

ولعل الشيخ حمد كتب دراسته عما أسماه بقطعة من كتاب «ابن شبة» في مجلة (العرب) في سنتها الرابعة.(٥)

ولقد أشار الدكتور الغنام ـ إلى أن رشيد ملحس هو أول من أشار إلى وجود مخطوطة الكتاب، في جريدة (أم القرى) الأسبوعية التي كانت تصدر بمكة المكرمة ١٧ـ٢٤ شوال، ٢ ذو القعدة ١٣٥٢هـ، ٢/ ٩ و ١٦ فبراير ١٩٣٤م ـ في دراسة قدمها عن تاريخ «المدينة المنورة وولاتها».

ولقد تضمنت مقالته، عن هذه المخطوطة، الإشارة إلى المكتبة الخاصة، التي توجد بها، مع إعطاء وصف مختصر لها، وقائمة بمحتوياتها، مع توثيق نسبتها إلى عمر بن شبة.

ولقد تنبهت إلى وجود ملاحظة كتبت في حاشية رسالة الدكتور الغنام ـ تعنى بتصحيح اسم كاتب المقالة: حيث إن اسمه الكامل هو: رشدي الصالح ملحس، ولعل كاتب الملاحظة هو الدكتور إبراهيم الزيد: الأستاذ بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الملك عبدالعزيز.(٦)

** إنه مما يدعو إلى التساؤل أن مؤرخا: كالسخاوي، لا يشير إلى اسم كتابه «ابن شبة» مع عنايته الخاصة بتاريخ المدينة المنورة، بل هو يكتفي بالقول: «المدينة النبوية لعمر بن شبة كما في ترجمته، وهو عند صاحبنا ابن فهد نقله من نسخة بخط شيخنا كانت عند ابن السيد عفيف الدين.(٧)

ولقد عني الشيخ الجاسر بشرح عبارة السخاوي: «وأقول: يقصد ابن فهد: عمر بن محمد، وشيخه هو ابن حجر، وعفيف الدين هو المطري عبدالله ابن محمد بن أحمد ـ ٦٩٨ ـ ٦٧٥ ـ[٨] ولم يناقش الأستاذ فهيم شلتوت، في مقدمته لتاريخ ابن شبة، قضية اسم هذا الكتاب، ولكنه اكتفى بوضع اسمه الكامل «كتاب تاريخ المدينة المنورة» إلا أن الدكتور الغنام يناقش قضية عنوان الكتاب، اعتمادا على أن «ابن النديم» في «الفهرست» يذكره باسم «كتاب المدينة» و «ابن النديم» يعد مصدرا أوليا.

أما المصادر الأخرى: مثل ابن عبدالبر، وابن حجر، والسمهودي فتذكره باسم «كتاب تاريخ المدينة المنورة» وهو يستنتج على أنه من المؤكد قد توفرت لهؤلاء المؤلفين نسخ متعددة، من هذا الكتاب، قد اطلعوا عليها، وأفادوا منها•في أماكنهم وأوقاتهم، كما يرجح أن «ابن النديم» لم يطلع على نسخة منه.[٩]

وبينما يرجح الأستاذ شلتوت على أن نسخة مكتبة مظهر الفاروقي ـ هي نسخة الحافظ ابن حجر اعتمادا على مشابهة خطها، لما نسخه بيده من الكتب المحفوظة بدار الكتب المصرية، مستبعدا أن تكون من خط السخاوي، كما ذكر في هامش المخطوطة[١٠] يؤكد الدكتور الغنام أن هذه النسخة من الكتاب، هي التي اطلع عليها السمهودي، وأفاد منها في الوفاء.[١١]

** يفترض الأستاذ شلتوت ـ عند تعرضه لمؤلفات ابن شبة أن كتاب (أمراء المدينة) هو نفسه (تاريخ المدينة) الذي بين أيدينا.

ولعل الذي دعا الأستاذ الكريم إلى افتراض ذلك هو أن الجزءين الثاني والثالث، من الكتاب، يشتملان على وصف تاريخي لحياة أميري المؤمنين عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان ـ رضي الله عنهما ـ بينما ركز الجزء الأول على حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسيرته.[١٢]

لم يجزم الدكتور الغنام برأي، في هذا الموضوع، عند تعرضه لقضية الكتابين المذكورين، بل يفترض أن ما يسمى بأمراء المدينة هو جزء من كتاب «أخبار المدينة» ولا يستبعد أن الجزءين الثاني والثالث وضعا معا بيد متأخرة.[١٣]

** يعضد الدكتور الغنام ـ رأي الشيخ حمد الجاسر في أن أول من

دون تاريخا منفصلا للمدينة المنورة هو عبدالعزيز بن عمران الزهري المدني، المعروف بابن أبي ثابت الأعرج، حيث يفيد الشيخ الجاسر: «أن صاحب الفهـرست ذكـر له مؤلفـات، وتدل النصوص، التي أوردها صاحب كتاب: المناسك، على عنايته بتاريخ المدينة. كما تدل على ذلك نصوص أخرى نقلها السمهودي من كتاب: تاريخ المدينة، لأن شبة، وقد توفى ابن عمران هذا سنة ١٩٧هـ.(١٤)

بينما يعتبر الأستاذ فهيم شلتوت - أن أول مؤلف في تاريخ المدينة هو كتاب محمد بن الحسن بن زبالة.(١٥) ولقد اعتمد الأستاذ شلتوت - في رأيه هذا - على - بروكلمان. الذي أشار إلى أن أول من ألف في تاريخ المدينة المنورة بصورة خاصة هو محمد بن الحسن بن زبالة، من تلاميذ مالك بن أنس، ولقد أتم كتابه في صفر سنة ١٩٩هـ، سبتمبر، أكتوبر سنة ٨١٤م، ولكن لم يبق منـه شيء، ولقد قام المستشرق «فستنفلد» باستخراج كتاب «ابن زبالة» من كتاب السمهودي، ونشره سنة ١٨٦٤م.(١٦)

ولقد حدد الأستاذ فؤاد سزكين - موقفه، من هذه القضية، قائلا: «ولا نستطيع أن نحدد الكتب، التي ألفت في تاريخ المدينة المنورة، ومع هذا يبدو أن محمد بن الحسن بن زبالة المخزومي - كان أحد المؤلفين الأوائل(١٧).

ولم يتوسع كثيرا في الحديث عن كتاب «ابن شبة» بل أورده تحت اسم «أخبار المدينة» معتمدا على أن «الزركلي» في كتابه «الأعلام» قد ذكر قسما منه قد وصل إلينا، كما أن هناك قطعا منه في «الإصابة».(١٨)

** في ختـام هذه الكلمة الموجزة عن أحد المصادر الهامة في تاريخ مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتسجيل أحداث سيرته المباركة، والعنـايـة بوصف أحـوال المجتمع المدني، في عهدي الخليفتين عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان - رضي الله عنهما - تجدر الإشارة لجهد السيد حبيب محمـود أحمد، الذي قام بطبع الكتاب ونشره على نفقته، والإشادة بالجهد العلمي المثمر، الذي بذله الأستاذ الفاضل فهيم محمد شلتوت، في تحقيقه، كما تجدر الإشارة إلى جهد الدكتور بكري شيخ أمين، الذي قام بوضع فهارس الكتاب المتنوعة، مما يسهل الرجوع إلى موضوعاته وإعلامه، كما أنه لابد من الإشارة لمشاركة الأستاذ أحمد هاشم مجاهد، الذي عمل على تقديم مخطوطة الكتاب للأستاذ المحقق، والله ولي التوفيق.

الاشارات والمراجع:

(١) هكذا وردت، ولعل الصحيح اعتمادنا.
(٢) مقدمة الكتاب: م.
(٣) انظر: فهرست الرسائل العلمية بالمملكة المتحدة لعام ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤م، فصل اللغات الأخرى ص ٤٦٧، لندن ـ ١٩٧٥م.
(٤) المغـانم المـطابة في معالم طابة، لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي ـ قسم المواضع ـ تحقيق حمد الجاسر، المقدمة ـ ز ـ ط ٢، ٨٩ـ٦٩.
(٥) رسائل تاريخ المدينة، تقديم حمد الجاسر، ص ٤١، ط ١، ٩٣ـ٧٢.
(٦) ابن شبه ـ د. الغنام، النص الإنجليزي، ص ٤٦.
(٧) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي، حققه وعلق عليه بالإنجليزية: فرانز روزنثال، ترجمة د. صالح أحمد العلي: ص ٩٠٢ بغداد ٨٢ـ٦٣، وانظر كذلك علم التاريخ عند المسلمين ـ ترجمة د. صالح أحمد العلي، ٦٤١، بغداد ـ نيويورك ١٩٦٣م.
(٨) المغانم المطابة: المقدمة: ز.
(٩) الغنام ـ النص الإنجليزي: ص ٥٠.
(١٠) شلتوت ـ المقدمة: م.
(١١) الغنام ـ النص الإنجليزي ـ ص ٤٨.
(١٢) شلتوت ـ المقدمة: ى.
(١٣) الغنام ـ النص الإنجليزي: ص ٥٠.
(١٤) المغانم المطابة: المقدمة: و.
(١٥) شلتوت ـ المقدمة: ل.
(١٦) تاريخ الأدب العربي ـ بروكلمان ـ ت عبدالحليم النجار: ج٣، ص ٢٤، ط ٢، ١٩٦٩م.
(١٧) تاريخ التراث العربي ـ فؤاد سزكين ـ ترجمة: د. محمود حجازي، د. فهمي أبوالفضل، المجلد الأول، ص ٥٥٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٧٧م.
(١٨) نفس المصدر السابق: ص ٥٥٦.

أبوبكر المراغي وكتابه (تحقيق النصرة)

** المؤلف: أبوبكر بن الحسين بن عمر القرشي العبشمي، الأموي، العثماني، المراغي، المصري، الشافعي، ولد في (القاهرة) ٧٢٧هـ ـ ١٣٢٧م. وهاجر إلى «المدينة» واستقر بها لحوالي خمسين عاما، ولقد تقلد ـ خلال حياته بالمدينة ـ عدة مناصب دينية: منها: القضاء، والوعظ، والإمامة، وكانت وفاته بها في عام ٨١٦هـ ـ ١٥١٤م»(١)

** الكتاب: عنوانه بالكامل هو: «تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة، وقد اعتمد عليه الإمام «السمهودي» في كتابه المعروف «الوفاء» واقتبس نصوصا منه في تسعة وعشرين موضعا، ولقد ذكر الزركلي «أن المستشرق بوشر» BUSHAR قام بنشر الكتاب في القاهرة، إلا أن النسخة الوحيدة المطبوعة التي اطلعت عليها، هي التي قام بنشرها المرحوم الشيخ «محمد النمنكاني» في سنة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م، زاعما أنها الطبعة الأولى للكتاب.

* * *

وقد قام بتحقيق هذه الطبعة الأستاذ «محمد جواد الأصمعي» اعتمادا على نسختين خطيتين محفوظتين بدار الكتب المصرية،(٢) إلا أن المحقق لم يتمكن من الاطلاع على النسخ الخطية الأخرى الموجودة في الدور العلمية التالية:

* نسختان خطيتان في مكتبة الحرم المكي، الأولى منهما محفوظة تحت رقم ١٢١، «مجموعة الدهلوي» وتاريخ نسخها هو ١٢٤١هـ ـ ١٨٢٥م، أما النسخة الثانية فتحت رقم ١١٠، وتاريخ نسخها هو ١٠٩٢هـ ـ ١٦٨١م.

* نسختان خطيتان في مكتبة «بودليان» BODLEIAN بجامعة كيمبردج البريطانية، محفوظتان تحت الرقمين التاليين: ٤٥١، ٥٢٧.

* نسخة مكتبة طوبقبو سراي بتركيا: المحفوظة تحت رقم ٦٠٦٦.(٣)

* نسخة مكتبة المتحف البريطاني المحفوظة تحت رقم ٣٦١٥، ويبدو أنها

النسخة الأصلية للكتاب: حيث يذكر المؤلف - في خاتمتها - أنه انتهى من نسخها في ١٢ رجب ٧٦٦هـ - ١٣٦٤م.

وصف الكتاب اعتمادا على نسخة المتحف البريطاني:

** في المقدمة يذكر «المراغي» أن كتابه هو صياغة لكتاب «الدرة الثمينة في أخبار المدينة» للحافظ محب الدين النجار[٤] «نشره الأستاذ الفاضل صالح جمال في عام ١٣٦٦هـ: وهي الطبعة الأولى للكتاب، وبين يدي الطبعة الثالثة، التي صدرت عن مكتبة الثقافة بمكة المكرمة سنة ١٤٠١هـ».

ويذكر «المراغي» أيضا - اعتماده على كتاب آخر لجمال الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد المطري[٥] وهو «التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة» «نشره أسعد طرابزوني في سنة ١٣٧٢هـ، بتحقيق الشيخ محمد بن عبدالمحسن الخيال» وهذا نص عبارة المؤلف التي يذكر فيها اعتماده على هذين المؤلفين:

«ولما كان من أحسن الموضوعات وأجمعها، وأكثرها تحقيقا، وأمتعها في الإعلام بمعالمها، وتحصيل دلايلها: تاريخ الشيخ الإمام الحافظ محب الدين النجار: الموسوم بالدرة الثمينة في أخبار المدينة، وما ذيله الشيخ الامام الحافظ جمال الدين محمد بن أحمد المطري - تغمدهما الله وإيانا بفضل رحمته - فهو وإن حرر «أي المطري» بسبب تأخره مما أهمله ابن النجار من معاهده. قد أخل بكثير من مقاصده: فاستخرت الله تعالى في جمع مقاصدهما بحذف الإسناد، مقربا بذلك طريق الإبعاد. تابعا - في الغالب - لفظ من ذيل: مع تحرير عبارة وتنقيح إشارة».

** لقد رتب المؤلف كتابه على مقدمة، وأربعة أبواب وخاتمة؛

أما المقدمة فتشمل ثلاثة فصول:

* الفصل الأول في فضل المدينة وسكانها.

* الفصل الثاني في أسماء المدينة.

* الفصل الثالث في فضل المسجد الشريف.

** وتحدث - في الباب الأول - في بعض مقدمات الهجرة، ووروده - صلى الله عليه وسلم - المدينة، وتأسيس مسجد قباء، وذكر مسجد الجمعة،

ثم مسجد المدينة، وما يتعلق به «ويشتمل الباب الأول على ستة فصول».

** البـاب الثـاني في ذكر وفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووفاة صاحبيه ـ رضي الله عنهما ـ ثم ذكر الزيارة وآدابها، وذكر البقيع، أي مقبرة المدينة ـ ومقبرة بني سلمة.

** البـاب الثالث: في فضل جبل «أحد» وذكر الشهداء به، وذكر بقية المساجد، وذكر الآبار.

** الباب الرابع: في ذكر أودية المدينة، وحفر الخندق، وحدود حرمها، وجبالها، وجهاتها، وما خصت به من الفضائل، وما يؤول إليه أمرها.

** أمـا الخـاتمـة فتشتمـل على فصلين، أحـدهما: في فضل الموت بالمدينة، والثاني: في ذكر ما يشوق إليها من الأشعار، ومن هذه الأشعار ما قرأه «المـراغي» علىٰ شيخـه «عبـدالله عفيف الدين بن محمـد بن أحمد المطري» شيخ المحدثين بالحرم الشريف ـ ما أنشده الشيخ الإمام أبومحمد عبدالله بن عمر بن موسى اليشكري». وهو قوله:

دار الحـبـيـب أحـق أن تهـواهـا
وتـحـن من طـرب إلى ذكـراهـا
وعـلى الجـفـون متـى همـمـت بزورة
يا ابـن الكـرام عليـك أن تغـشـاهـا

** **قيمة الكتاب العلمية:**

* من مصادر الإمام «السمهودي» الرئيسية في كتابه «الوفاء».
* تأثر به مؤرخو المدينة في طريقة عرض معلوماتهم التاريخية عنها.
* يذكر السيد «إسماعيل البرزنجي» في كتابه «نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين» أن «المراغي» يعتبر أستاذاً للسمهودي، ولعله أراد بذلك اعتماده عليه في تحقيق بعض المسائل المتعلقة بتاريخ المدينة.

* يشيـر «المـراغي» في مقـدمة كتابه إلى النقص الذي يوجد ببعض المؤلفات التاريخية عن المدينة، ومحاولته تلافي هذا النقص، والابتعاد عن التطويل، الذي لا يخدم النص التاريخي، مشيراً إلى إضافاته في موضوع التأليف عن المدينة.

* ينقـل عن بعض المؤلفات التاريخية المفقودة ـ في تاريخ المدينة ـ

كتاريخ «ابن زبالة» إلا أنه يعارضه ـ أحياناً ـ وعن «المراغي» نقل هذه الآراء كثير من مؤرخي المدينة، الذين أتوا بعده.

* تأريخه للحوادث، التي تعرض لها المسجد النبوي الشريف: كالحرائق التي حدثت في سنة ٦٥٤هـ، كما أنه لا يغفل الحوادث التاريخية التي تعرضت لها الدولة الإسلامية عند عرضه لبعض مواد تاريخ المدينة.

* يحاول أن يربط بين وجود المعالم التاريخية التي يتحدث عنها بالفترة التاريخية، إبان كتاباته، فيقول ـ مثلا ـ عند ذكره سور المسجد القبلي: «وهو باق إلى تاريخ هذا الكتاب».

* يحاول الابتعاد عن أسلوب الجزم في تحديد المواضع إذا لم يكن متأكداً من ذلك، فهو يقول عن بني وائل: «ومنازلهم لا يعرف مكانها اليوم، إلا أن الظاهر أنهم كانوا بالعوالي شرقي مسجد الشمس».

* عند تغير اسم الموضع القديم أو المسجد ـ يحاول أن يذكر الاسم الذي حل محله فيقول: عن وادي الروحاء: «ويعرف اليوم بوادي بني سالم».
وعن مسجد الروحاء يقول: «ويعرف الآن بمسجد الغزالة».

* يحاول التأكد من مكانة الموضع ـ دينيا وتاريخيا ـ بربطه بما تم فيه من حوادث فيقول مثلا: «وبمسجد الروحاء موضع كان عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ينزل فيه، ويقول: هذا منزل النبي ـ صلى الله عليه وسلم».

* يحاول أن يقارن بين رأيه والآراء الأخرى في تحديد المواضع: فهو يذكر آراء «ياقوت» و «ابن الأثير» و «ابن مزروع البصري».

* تحديده لمسار البراكين، التي ثارت بالمدينة، والمدة التي استغرقتها، والآثار التي نجمت عنها.

* تسجيل المؤلف لحوادث السيول وهو ما عرفت به المدينة قديما وحديثا، وما يتسبب عنها من أضرار.

* إشارته إلى النواحي التعليمية، في المدينة كإشاراته إلى بعض مدارسها كالمدرسة الشهابية.

* يعطينا الكتاب إشارات هامة من بداية إنشاء الأربطة والأوقاف بالمدينة.

* إشارته للأولويات التي حدثت بالمدينة، كأول من اتخذ القضاء، وأول من جلب إليها العمال من أقطار أخرى، ومتى عرفت تخطيط البناء.

* تحقيقه للمواضع التاريخية الهامة كوادي العقيق، ووادي مذينب، ووادي مهزور.

* من النواحي العامة في الكتاب وصف المؤلف الشخصي لطريق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المدينة إلى مكة.

* استعانته ـ عند الحديث عن الحجرة النبوية وقبور أصحابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمصور مبسط لها.

* تتميز نسخة المتحف البريطاني[٦] الخطية لهذا الكتاب بالشروحات التي أضافها المؤلف في الهامش.

الاحـــالات:

(١) انـظر ترجمة المراغي في: شذور الذهب ٧/ ١٢٠، الضوء اللامع ٧/١٦٧، كشف الظنون، ٣٧٨، الأعلام ٦/٢٨٣، بروكلمان (الطبعة العربية) ٦/٢١١.

(٢) دار الكتب المصرية، تاريخ، رقم ٥٩، ١٦١٤.

(٣) انظر:

Arapca Yazmalar Kataogu. C. III

(Istanbul, 1996) P.449, No. 6066, k, 894.

(٤) محمد بن محمود بن حسن بن هبة الله بن محاسن البغدادي. ولد في بغداد سنة ٥٧٨هـ ـ ١١٨٣م، وتوفى سنة ٦٤٣هـ ـ ١٢٤٥م.

انـظر: ترجمته في «الموسوعة الإسلامية» (الطبعة الإنجليزية) الجزء الثالث، ص ٨٩٦، وكذلك في «الأعلام» ج ٧، ص ٣٠٧.

(٥) جمال الدين محمد المطري، الأنصاري، الخزرجي ولد سنة ٦٧١هـ ـ ١٢٧٢م وتوفى سنة ٧٤١هـ ـ ١٣٤٠هـ.

انظر ترجمته في «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» لعبدالله بن محمد بن فرحون، ص ١٣٨ـ١٤١ «مخطوط» عارف حكمت بالمدينة، تاريخ رقم ٧٦٧.

(٦) Title: Tuhkik Al-NusraH, Cataloge: Or. 3615

ذيل الانتصار لسيد الأبرار
لعمر ابن السيد علي السمهودي

* **المؤلف**: السيد عمر ابن السيد علي السمهودي المدني (١٠٨٥ـ١١٥٨)[١] ترجم له «الأنصاري» في «تحفة المحبين» عند تعرضه لنسب بيت «السمهودي» قائلا:

* «نشأ نشأة صالحة، واشتغل بطلب العلوم من منطوق ومفهوم ودرس بالروضة النبوية، وصار مفتي الشافعية، وخطب وأمَّ وألف وصنف ونثر ونظم».[٢]

* وزاد في «سلك الدرر»[٣] أنه «أخذ عن أشهر علماء المدينة المنورة، في القرن الثاني عشر الهجري، الشيخ أبي الطاهر ابن الملا إبراهيم الكوراني».[٤]

* فالمؤلف من نسل السيد علي بن عبدالله بن أحمد الحسني السمهودي[٥]، مؤرخ المدينة المعروف، إلا أن أسرته لم تهاجر من «سمهود» إلى المدينة، إلا بعد وفاة السيد «علي» المذكور.

* **المخطوط**: هو «ذيل الانتصار لسيد الأبرار» وهو مخطوط لم تشر إليه كتب التراجم، التي تصدت لترجمة المؤلف، ولم يتعرض له أحد من مؤرخي المدينة، في العصر الحديث، ولا يتجاوز حجم هذا المخطوط خمس عشرة صفحة، وذكر ـ في خاتمته ـ أنه فرغ من تحريره في النصف الثاني من ذي الحجة الحرام، عام ألف ومائة وأربعة وثلاثين، واقتصر فيه على التاريخ للفتنة الواقعة بين سكان المدينة المنورة والأغوات ومن ناصرهم من الأعراب، سنة ١١٣٤هـ.

* **فتنة العهد**: هكذا أطلق عليها المؤرخ «عبدالرحمن بن حسين الأنصارى» مكتفيا بعبارة موجزة عنها، ووصف مقتضب، عند قوله: «وفي زمن شيخ الحرم أيوب أغا، سنة ١١٣٤هـ، أربع وثلاثين ومائة وألف، وقعت قصة العهد، وفعلوا ما فعلوا، وخبرها طويل عريض».[٦]

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ ذاكرا ما جرى في أيام العهد الكائن من أهل المدينة من الفتنة والحرب بينهم وبين أغوات الحرم النبوي: وسبب صدور العهد المذكور مجملا، قد كرر سيف العهد السيد محمد بن علي أبي العزم ـ رحمه الله تعالى ـ في سنة أربع وثلاثين ومائة وألف».(٧)

ثم ذكر القصيدة التي نظمها الشاعر تحت تأثير أحداث فتنة ١١٣٤هـ ـ ١٧٢١م، وتتكون القصيدة من أربعة وستين بيتاً، من بحر الكامل، ويفتتحها الشاعر قائلا:

المجد تحت ظلال سمر الذبل
وظبا القواضب والجياد القفل
الموريات العاديات ضوابحا
الصافنات الزافرت الجفل
والخوض في غمرات بطنان النوى
يوم التصادم في القتام المسبل
وتواترت العزمات في طلب العلا
والفوز في أقصى فيافي الهوجل
والفخر ما ترك الأعادي خشعا
رفل المحازم كالجياد العزل
بين القنا وورود أحواض الردى
لقوا العلاقم في تراقي الحوصل
لا عاش من ترضى المذلة نفسه
طوعا، وعن شأو المفاخر يأتلي
تعست حياة لا تشاب بعزة
غبراء بين مهابة وتذلل
العز أجمل ما اقتناه أولو النهى
والذل بالأحرار ليس بمجمل

وتحت عنوان: «ذكر الفتنة التي وقعت بالمدينة بين الأغوات وأهل المدينة سنة ١١٣٤هـ» ذكر أحمد دحلان أنه: «في مدة ولاية الشريف مبارك ابن أحمد بن زيد، سنة أربع وثلاثين ومائة وألف، وقع بالمدينة فتنة عظيمة شهيرة بين الأغوات وأهل المدينة، ونشأ عنها قتل السيد عبدالكريم البرزنجي

المدفون بجدة، المشهور بالمظلوم وتلك الفتنة الكلام على تفصيلها طويل».[٩]

وأشار «دحلان» في مصدر آخر، إلى عواقب هذه الفتنة، وذلك عند ترجمته للسيد محمد بن عبدالرسول البرزنجي. ومن أولاده: السيد عبدالكريم المدفون بجدة المشهور بالمظلوم، وسبب ذلك أنه في سنة ١١٣٣ ـ ثلاث وثلاثين ومئة وألف، في دولة الشريف مبارك بن أحمد بن زيد ـ أمير مكة ـ وقعت فتنة بين أهل المدينة وأغوات الحرم، ووقع فيها قتال يوما وبعض يوم، وانتشر فساد وشر كثير، ثم عرض ذلك على الدولة العلية، وذكروا أن السيد المذكور، وولده السيد حسن، وبعض أعيان أهل المدينة حرضوا الناس في تلك الفتنة. فصدر الأمر من الدولة العلية بقتل بعض الأشخاص، ونفي آخرين، وكان السيد عبدالكريم المذكور من جملة المأمور بقتلهم، وكذلك ولده السيد حسن».[١٠]

وأورد الأنصاري في كتابه «التحفة» إشارات موجزة عن هذه الفتنة، عند ترجمته لبعض وجهاء المدينة في فترة القرن الثاني عشر الهجري، والذين كانوا طرفا في هذه الواقعة، فنجده ـ مثلا ـ يقول عند حديثه عن بيت العادلي أو بيت أبي العزم، كما هو مشهور عنهم: «فأما السيد حسن فمولده سنة ١٠٩٩هـ، وخرج من المدينة المنورة مختفيا في الفتنة المذكورة أعلاه ـ أي: فتنة العهد ودخل مصر المحروسة، وبقي مختفيا بها في بيت السيد محمد النحال، إلى أن توفي سنة ١١٨٤هـ، وله تصانيف ورسائل وخطب وغير ذلك».[١٣]

وتؤكد بعض المصادر التي عنيت بتاريخ جدة، في القرن الثاني عشر الهجري، ومنها كتاب[١٤] الحضراوي[١٥] الذي تولى نشره الشيخ حمد الجاسر في مجلة العرب[١٦] وجود قبر عبدالكريم البرزنجي في ناحية مدينة جدة، يقول الحضراوي في هذا الشأن: «وبها ـ أي بجدة ـ قبر الإمام الشهير المعروف بالمظلوم، وهو أحد أجداد السيد جعفر البرزنجي، واسمه: السيد عبدالكريم ابن السيد محمد بن عبدالرسول البرزنجي».[١٧]

ويرى المؤرخ السيد عبيد عبدالله مدني ـ رحمه الله ـ أن فتنة العهد كانت سببا لفتن أخرى أعقبتها، ومآس عديدة نتجت عن رواسبها، وكان ميدان هذه الفتن جميعا هو المدينة التي حرمها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعا

لأهلها بالخير والبركة.

يقـول السيد المدني عند تقديمه لإحدى القصائد التي أرخ فيها لهذه الحوادث الأليمة: «نسب مؤرخو المدينة المنورة هذه الفتنة إلى عبدالرحمن أغا الكبير، شيخ الحرم النبوي الشريف، لأنه هو الذي تولى كبرها، ونفخ في بوقها، وهاجتها بالاضافة إلى أسبابها رواسب من فتنة العهد سنة ١١٣٤». (١٨)

الاحالات:

(١) عند بعض المؤرخين أنه توفي سنة ١١٥٧هـ، محمد خليل المرادي ـ سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، طبعة بولاق، ١٣٠١هـ، ج٣، ١٨٣ـ١٨٤.

(٢) عبدالرحمن الانصاري: تحفة المحبين والاصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب، تحقيق: محمد العروسي المطوي، تونس ١٣٩٠هـ ـ ١٩٨٠م، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٣) سلك الدرر، ج ٣، ١٨٤.

(٤) محمد أبو الطاهر ابن الملا إبراهيم الكوراني الشافعي، ولد بالمدينة سنة ١٠٨١هـ، ونشأ بها وطلب العلوم، وتولى إفتاء الشافعية مدة إلى أن توفى ٩ رمضان سنة ١١٤٥هـ. انظر: تراجم اعيان المدينة المنورة في القرن «١٢» الهجري: تحقيق وتعليق الدكتور محمد التونجي ـ دار الشروق، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، ص ١٠٤.

(٥) علي بن عبدالله بن أحمد الحسني الشافعي: مؤرخ المدينة المنورة ومفتيها، ولد في سمهود، ونشأ في القاهرة، واستوطن المدينة سنة ٨٧٣هـ، توفى بها. من كتبه «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» انظر: خيرَ الدين الزركلي: الاعلام ط ٧، ١٩٨٦م، ج ٤، ص ٣٠٧.

(٦)
THE LITERATIUR OF MEDINA IN THE TWELFTH CENTURY A.H. (EXAMINED FROM CONTEMPORRY SOURCES, WITH ACRTITICAL EDITON OF ONE OF THESE SOURCES: AI-AKHABR AL-GHARIBA FI DHIKR MAWAQA A BI TAYBA AL-HABBA.
BY: JA FAR HASHIM AL-HUSAYNI
ATHESIS, FOR THE DEGREE PH. D.
BY: ASIM HAMDAN, PART TWO, P. 4.

(٧) مخطوطة ديوان السيد جعفر البيتي العلوي السقاف المدني: نسخة مكتبة المتحف العراقي ببغداد: ص ٢٠٥.

(٨) عاصم حمدان: شعراء المدينة المنورة والشعر الملحمي في القرن الثاني عشر الهجري، صحيفة المدينة المنورة، العدد ٧٥٩٣ (٢٣ جمادى الآخرة ١٤٠٨) «ملحق التراث» ص ٤.

(٩) احمد زيني دحلان: خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ـ القاهرة، ١٣٠٥هـ ـ ١٨٨٧م، ص ١٧٢.

(١٠) أحمد دحلان: أسنى المطالب ـ القاهرة ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م، ص ٤٠.

(١١) تحفة المحبين، ص ٣٥٨.

(١٢) المصدر السابق، ص ٨٨.

(١٣) المصدر السابق، ص ٨٨.

(١٤) توجد نسختان من كتاب الحضراوي «الجواهر المعدة في فضائل جدة» إحداهما بمكتبة الشيخ عبدالستار الدهلوي، المضافة إلى مكتبة الحرم المكي ـ بخط المؤلف ـ ورقمها ٢٧، والثانية في خزانة «جستر بيتي» في مدينة دبلن في إيرلندا، رقمها ٣٧٢٢. وقد افادني بهذه المعلومات الزميل الفاضل محمد حبيب: الأستاذ بقسم الجغرافيا بكلية الآداب بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة.

(١٥) «أحمد بن محمد بن أحمد الحضراوي المكي الهاشمي» مؤرخ ولد بالإسكندرية، ونشأ بمكة، وتوفي بها سنة ١٣٢٧ الأعلام: ج ١، ٢٤٩.

(١٦) العرب (رجب، شعبان سنة ١٣٩٩) ص ١١٠ـ١١١.

(١٧) أوصل نسبه في «الجواهر المعدة» إلى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

(١٨) عبيد مدني: شعراء المدينة المنورة والشعر الملحمي في القرن الثاني عشر الهجري، بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين جدة، ١٩٧٤م، ص ٧٣١.

الخليفتي وكتابه نتيجة الفكر
في خبر مدينة سيد البشر

المؤلف وشخصيته العلمية:

** محمد بن زين العابدين بن عبدالله بن عبدالكريم المدني، ينتسب إلى أسرة الخليفتي (نسبة إلى الخليفة) المجاورين بالمدينة، منذ أواخر القرن العاشر الهجري، حيث قدم الشيخ عبدالوهاب الخليفتي العباسي من مصر سنة ٩٩٠هـ، واستقرت أسرته بالمدينة، فكان منها العلماء، والأئمة والخطباء.

أما المؤلف نفسه فتتباين المصادر التي ترجمت له في تاريخ ولادته، فبينما يحددها الأنصاري(١) وهو معاصر له بعام ١١٣١هـ، نجد كلا من المرادي(٢) وإسماعيل باشا(٣) يذكر أن ولادته تمت في سنة ١١٣٠هـ، وينفرد (المرادي) بذكر مشايخه، الذين تلقى العلم عنهم، كالشيخ محمد حياة السندي، والسيد إبراهيم أسعد، كما تجمع المصادر، التي ترجمت له على مكانته الدينية، فلقد تولى الخطابة والإمامة، وصار شيخ الخطباء في المدينة، كما تولى منصب الإفتاء فيها.

أما من حيث إنتاجه العلمي فنجد مصدرا ككتاب تراجم أعيان المدينة المنورة في القرن الثاني عشر(٤) يذكر أنه كان نظاما وناثرا، أما (البغدادي) فإنه الوحيد بين المصادر التي ترجمت له نجده ينفرد بذكر مؤلفه في تاريخ المدينة، ولا نجد ذكرا لهذا الكتاب عند معاصره «عبدالرحمن الأنصاري» وهو أمر غريب، فلقد عني الأخير بتدوين معظم الآثار العلمية التي دونها أصحابها، إبان القرن الثاني عشر الهجري.

أما تاريخ وفاته فلقد اتفق الجميع أنها حدثت في سنة ١١٨٢هـ، إلا أن الأستاذ عبدالسلام هاشم حافظ(٥) يرى أن الخليفتي قد توفى سنة ١١٧١هـ.

كتاب نتيجة الفكر:

** لم أطلع على مخطوطة أصلية لهذا الكتاب، ولكن الشيخ جعفر إبراهيم فقيه - أمد الله في عمره - زودني بنسخة منه، مطبوعة على الآلة الكاتبة، ولم يذكر لي عن الأصل شيئا.

في مقدمة هذه النسخة نجد المؤلف يذكر أنه وضع مؤلفه هذا استجابة لرغبة قاضي المدينة، وابن قاضي البلد الحرام «محمد أمين أفندي» ابن المرحوم «صالح أفندي» الذي طلب منه أن يجمع له نبذة عن محاسن المدينة الزاهرة، وآثارها الفائقة، فكان هذا الكتاب الذي رتبه على خمسة أبواب وخاتمة:

* **الأول** : في فضل المدينة.
* **الثاني** : في فضل مسجدها الأنور، وروضتها الشريفة.
* **الثالث** : في من يزار بها من الصحابة والأخيار.
* **الرابع**: في مشاهدها، ومآثرها.
* **الخامس**: في فضل المجاورة بها.

** في الباب الأول: يسرد من فضائل المدينة، من نحو: فضل الإقامة، والموت بها، والصبر على لأوائها وشدتها مُعضِّداً قوله بجملة من الأحاديث، من صحيحي البخاري ومسلم، كما يشير إلى بعض القصص التاريخية التي لم يذكر مصادرها كقصة المهدي العباسي، عندما قدم إلى زيارة المدينة، واستقبله الإمام مالك - رحمه الله - وجملة من أشرافها على أميال، فلما أبصر «المهدي» مالكا انحرف إليه، وعانقه، وسلم عليه، وسايره، فالتفت مالك إلى المهدي قائلا: يا أمير المؤمنين إنك تدخل - الآن - المدينة فتمر بقوم عن يمينك ويسارك، وهم عترة النبي صلى الله عليه وسلم وقرابته، وأولاد المهاجرين والأنصار، فسلم عليهم، فإن ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة، ولا خير من المدينة.

فسأله «المهدي» قائلا:

- من أين قلت ذلك يا أبا عبدالله؟

فقال: لأنه لا يعرف قبر نبي - اليوم - غير قبر سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن كان قبر محمد - صلى الله عليه وسلم - عندهم، فينبغي أن يعرف فضلهم على غيرهم، إذ من معرفة فضلهم، واحترامهم، سرور خاطره

- صلى الله عليه وسلم - كما يورد المؤلف في هذا الباب جملة من دعاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - للمدينة كالذي ورد في البخاري ومسلم، «**اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة**».

ويستشهد المؤلف - في هذا الكتاب - أيضا بمن سبقه من العلماء، كاستشهاده بالمجد «الفيروز آبادي» ولكنه لا يذكر المصدر الذي نقل منه الاستشهاد، إلا أن يكون ذلك من باب الاعتماد على ثقافة القارئ، الذي يعرف أن للفيروز آبادي كتابا في تاريخ المدينة، وهو كتاب «المغانم المطابة في معالم طابة» ولقد قام الشيخ حمد الجاسر بتحقيق قسم المواضع منه.[٦]

*** وفي الباب الثاني يتعرض المؤلف لتفسير الآية التي وردت في فضل مسجد قباء [**لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين**][٧] ويورد رأيا آخر يذكر أن المراد بالمسجد في هذه الآية، هو مسجد المدينة «أي المسجد النبوي».

كما يتعرض لبعض الآثار الواردة في فضل الروضة المطهرة بالمسجد النبوي الشريف، مفصلا الحديث في المعنى الوارد في فضل هذه الروضة من أنها روضة من رياض الجنة، ثم ينتقل إلى الحديث عن حدود الروضة ناقلا عن المؤرخَيْن «ابن النجار» و «المراغي»[٨] قولهما إن حدود الروضة هي حدود المسجد كلها، ويختم «الخليفتي» بحثه في مسألة الروضة قائلا: «وأما بيان الروضة من هذا المسجد فللعلماء في ذلك مجال، أوله أنها المسجد الموجود في زمنه - عليه الصلاة والسلام - الثاني: أنها ما سامت المنبر والحجرة فقط.

ويصل حديثه - بعد ذلك - عن الاسطوانات المعروفة في المسجد النبوي، كاسطوانة السيدة عائشة - رضي الله عنها - واسطوانة التوبة، واسطوانة الحرس، واسطوانة السرير، وأسطوانة مقام جبريل، واسطوانة التهجد، واسطوانة الوفود، ويحدد مواضع هذه الاسطوانات من مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - مستشهدا ببعض آراء المؤرخين من قبله، «كابن زبالة»[٩] و «المطري»[١٠]

*** وفي الباب الثالث يتحدث عن زيارة مشاهد الصحابة - رضوان الله عليهم - كما يحدد مواضع بعض هذه المشاهد، وعند الحديث عن مشهد

سيدنا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ يروي «الخليفتي» عن «ابن زبالة» أنه ـ رضي الله عنه ـ دفن بمقبرة كان اشتراها وزادها وهي التي تسمى «حشُّ كَوْكَب» وينقل عن «المراغي» تحديده لهذا المصطلح بأن «الحش» هو: البستان و «كوكب» اسم امرأة، وأن الناس كانوا يتوقفون أن يدفنوا موتاهم فيه، فكان عثمان ـ رضي الله عنه ـ يقول: «يوشك أن يهلك رجل صالح، فيدفن هناك، فيتأسَّى به الناس» قال: فكان هو أول من دفن به.(١١)

** ويخصص «الخليفتي» الباب الرابع للحديث عن مساجد المدينة المنورة، والآبار المعلومة بها، فأول المساجد مصلاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي لازمه في العيدين، وينقل قول المؤرخ «المطري»: لم يعرف من المساجد، التي ذكرها لصلاة العيد إلا هذا المسجد الذي يُصلى فيه اليوم، ومسجد شماليه وسط الحديقة المعروفة «بالعريضية»(١٢) المتصلة بقبة عين الأزرق، ويعرف ـ اليوم ـ بمسجد سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه.

ثم يعقب المؤلف قائلا: ومسجد كبير شمالي الحديقة متصل بها يسمى بمسجد سيدنا علي ـ رضي الله عنه ـ ولم يرد أنه ـ رضي الله عنه ـ أي: عليّ صلى بالمدينة عيدا في خلافته، فتكون هذه المساجد الموجودة ـ اليوم ـ من الأماكن التي صلى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العيد، سنة بعد سنة، وعيدا بعد عيد إذ لا يختص أبوبكر وعلي ـ رضي الله عنهما ـ بمسجدين لأنفسهما، ويتركان المسجد الذي صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم.

وينقل عن مؤرخ المدينة «السمهودي» قوله في الوفاء: «إن رسمهما بحيث يعلمان أنهما مآثر ومساجد كانت في زمن الخليفة ـ عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنه.

ثم يتحدث المؤلف عن مسجد قباء وفضل زيارته، تأسيا بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويذكر أن أول من بنى هذا المسجد بعد بناء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو: عمر بن عبدالعزيز(١٣) رضي الله عنه ـ في زمن الوليد، ثم جدد عمارته «جمال الدين الأصفهاني» وزير «ابن زنكي» أحد ملوك بلاد الموصل سنة ٥٥٥هـ، وجدده كذلك: الناصر بن قلاوون سنة ٧٣٣هـ.

وبعد مسجد قباء يأتي المؤلف على ذكر عدد من المساجد، منها: مسجد الجمعة(١٤) ويسمى ـ أيضا ـ بمسجد الوادي، ومسجد الفضيخ، ويعرف ـ

أيضــا ـ بمسـجـد الشمس، وهــو شرقي مسـجـد قباء، ومسـجد مَشْرَبة أم إبـراهيم(١٥) ومسـجد بني ظفر، ومسجد الفتح، ويقال له: مسجد الأحزاب، ومسـجد ذباب، ويعرف بمسـجد الراية، وهو على يسار الداخل إلى المدينة من طريق الشام، وذباب، اسم جبل.

وأما الآبار المشهورة بها، فهي سبع، وهي: بئر أَريس، بفتح الهمزة وكسر الراء، وتسمى ـ أيضا ـ بئر الخاتم، وبئر الغُرْس ، بضم الغين، وبئر العهن وبئر البُصّة، بضم الباء وفتح الصاد المشددة، والمعروف بين أهل المدينة ـ التخفيف، وبئر حاء، وبئر رُومة ـ بضم الراء وسكون الواو ـ وبئر بُضاعة ـ بضم الباء، وحكي كسرها.

*** أما الباب الخامس، الخاص بفضل المجاورة بها، فإن المؤلف يفتتحه قائـلا: يتعين على من قصـد المجاورة بها أن يخلص نيته وطويته، فإنما الأعمال بالنيات، فينوي المجاور التقرب إلى الله تعالى بالإقامة بداره ـ صلى الله عليـه وسلم ـ والدخـول في سلك جيـرانه، ويغتنم مع زيارته ومجاورته الاعتكاف بمسجده، مع الاشتغال بذكر الله، وتلاوة القرآن وختمه، وملازمته، ودراسـتـه، وإكثار الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وينوي اجتناب الآثام والمعاصي والمكروهات، مع التصميم وعقد التوبة النصوح على عدم العودة، ويلاحظ بفعله ـ مدة إقامته ـ جلالتها، وأنها البلدة التي اختارها الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في الحياة وبعد الوفاة».

كما يذكر بعض الاستشهادات الشعرية في فضل المدينة النبوية، وفضل المجاورة بها.

ولقد ورد في ختام هذا الكتاب ـ تاريخ الانتهاء من جميع مادته، وهو يوم الاثنين الثامن عشر من شهر جمادى من عام ١١٧١هـ.

الاحالات:

(١) عبدالرحمن الأنصاري: تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب ـ تحقيق: محمد العروسي المطوي ص ٢٠٣، تونس، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٨٠م.

(٢) محمد خليل المرادي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ـ طبعة بولاق ج٤، ص ٦٠، ١٣٠١هـ.

(٣) إسماعيل باشا البغدادي: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، طبعة استانبول، المجلد الثاني، ص ٦٢٣، ١٣٦٦هـ، ١٩٤٧م.

(٤) المؤلف مجهول، تراجم أعيان المدينة المنورة في القرن الثاني عشر الهجري ـ تحقيق الدكتور محمد التونجي، ط ١، ص ٧٦، جدة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

(٥) عبدالسلام هاشم حافظ: المدينة المنورة في التاريخ ـ ط ٢، ص ١٩٨، القاهرة ١٣٨١هـ.

(٦) صدر عن منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ويحمل رقم ١١ في سلسلة نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب، وكانت الطبعة الأولى منه سنة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

(٧) سورة التوبة آية رقم ١٠٨.

(٨) قال «زين الدين أبو بكر الحسين المراغي» في كتابه «تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة»: وينبغي اعتقاد كون الروضة الشريفة لا يختص بما هو معروف ـ الآن ـ بل تتسع إلى حد بيوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ناحية الشام، وهو آخر المسجد في زمنه، فيكون كله روضة، انظر مخطوطة هذا الكتاب، نسخة مكتبة جامعة اكسفورد بالمملكة المتحدة رقم ٥٢٧ ص ١٦/١٧.

(٩) محمد بن الحسن بن زبالة، ألف كتابه في تاريخ المدينة سنة ١٩٩هـ، ٨١٤م، انظر: فرانز روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي، بغداد ١٩٦٣م، ص ٦٤٢.

(١٠) جمال الدين محمد المطري الأنصاري الخزرجي، صاحب كتاب «التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة» انظر كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة د. عبدالحليم النجار، ج ٦ ص ٢١١ـ٢١٢، دار المعارف، ١٩٧٧م.

(١١) قال ابن شبة: «حدثنا علي، عن أبي دينار، أحد بني دينار بن النجار ـ عن مخلد بن خفاف، عن عروة ابن الزبير، قال منعهم من دفن عثمان بالبقيع أسلم بن أوس بن بحرة الساعدي، قال: فانطلقوا به إلى حش كوكب، فصلى عليه حكيم بن حزام، وأدخل بنو أمية حش كوكب في البقيع «انظر: أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري، أخبار المدينة النبوية» تحقيق: فهيم شلتوت ط ٢، ص ١١٣، جدة ١٣٩٣هـ.

(١٢) ما زال الحي الذي يقع فيه مسجد سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يحمل اسم «العريضية».

(١٣) يبدو أن بناء عمر بن عبدالعزيز لمسجد قباء حدث إبان ولايته على المدينة في خلافة الوليد بن عبدالملك.

(١٤) يذكر مؤرخ المدينة الشريف العياشي: أن مسجد الجمعة هو الأثر الثالث من المساجد بعد مسجد مصبح ومسجد قباء، ثم هو أول مسجد صُليت فيه الجمعة، وفيه أول خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم، وأصبح هذا المسجد الآن في وسط مزرعة السيد حسن شربتلي على يسار النازل من شارع قباء ـ انظر: إبراهيم بن علي العياشي، المدينة بين الماضي والحاضر ص ١٠٣.

(١٥) تقع المشربة في الجنوب الشرقي عن المسجد النبوي بنحو ثلاثة كيلومترات، وبالقرب منه اي: من مسجد المشربة من جهة الشرق حرة زهرة. انظر المصدر السابق ص ٤٢٨.

تحفة الدهر ونفحة الزهر في أعيان المدينة من أهل العصر لعمر بن عبدالسلام الداغستاني

** يعتبر كتاب التحفة[1] أحد المصادر التي اهتمت بأدباء المدينة المنورة خلال القرن الثاني عشر الهجري، إلا أن نسبة هذا الكتاب لمؤلفه المعروف عمر بن عبدالسلام الداغستاني[2] قضية اختلف حولها بعض الذين تعرضت دراساتهم لهذا المؤلف، ومن بينهم الدكتور صلاح الدين المنجد[3] الذي نسب الكتاب بعد اطلاعه على نسخة منه في جامعة كمبردج[4] لمؤلف آخر، هو محمد بن خليل المرادي[5] «١١٧٣هـ ـ ١٢٠٦م» وتبعه ـ في ذلك ـ كل من عمر كحالة[6] وأسامة العانوتي.[7]

ولقد رجعت إلى نسخة «كمبردج» التي كانت سببا في هذا الاختلاف المتصل بنسبة الكتاب إلى أكثر من مؤلف واحد، وفي هذه النسخة الخطية من الكتاب نجد اسم «الداغستاني» ورد فيها كناسخ له، بينما نسب تأليف الكتاب إلى «المرادي» إلا أن النسخ الخطية الأخرى من الكتاب اتفقت على نسبة الكتاب للداغستاني.

* * *

الكتاب بين الداغستاني والمرادي:

وتفسير ذلك أن المرادي كان في فترة القرن الثاني عشر يعمل على تأليف كتابه المعروف «سلك الدرر» والمتخصص في تراجم أدباء وشعراء البلاد العربية، وكان كما يذكر الدكتور إسحاق الحسيني[8] يقوم ـ أيضا ـ بمراسلة رجال الفكر والأدب، وحثهم على تزويده بما يحتاج من معلومات، ومن بينهم العالم اليمني السيد محمد مرتضى الزبيدي[9] الذي كان على صلة وثيقة بأدباء المدينة المنورة، في تلك الحقبة فيفترض أن «الزبيدي» قام بتقديم نسخة من كتاب «التحفة» للمرادي، فتوهم من اطلع على الكتاب أنه من تأليف «المرادي» فقام بنسخه، ونسبه إليه، وهذا الافتراض يدفعنا إليه تلك الدلائل الأكيدة التي تقوم على صحة نسبه الكتاب للداغستاني.

ومن بين هذه الدلائل:

أن شهرة نسبة هذا الكتاب للداغستاني دفعت بعض معاصريه (أي الداغستاني) من الأدباء أن يقرنوا بينهما في بعض القصائد الشعرية التي نظمت إشادة بمجهود هذه الشخصية الأدبية في التأريخ لأدباء المدينة في تلك الفترة، ومن هؤلاء الأدباء السيد زين العابدين بن محمد بن علي البرزنجي الذي يقول في قصيدة له:

إمام بدا للناس، والدهر تحفة
همام، نمى من طيبة نفحة الزهر

أما الشاعر «يحيى بن هاشم المدني» الذي أهدى قصيدة للمؤلف ليضمنها كتاب «تحفة الدهر» فإنه يذكره باسمه قائلا:

فلأنت حسان الزمان فكن به
بسما طباق الشعر بدرا نيرا
واسلم لنا «عمرا» لملة قصدنا
تحمي بسيف لانتقادك أخضرا

كما تقوم دلائل أخرى من الكتاب نفسه، من بينها اشتماله على ترجمة لأبي بكر ابن المدرس عبدالسلام الداغستاني، ولقد أشير في مقدمة هذه الترجمة أنه أخ للمؤلف نفسه.

كما نجد أديبا كعبدالرزاق البيطار، في القرن الثالث عشر الهجري، يؤكد عند تدوينه لترجمة «غمر الداغستاني» نسبة هذا المؤلَّف إليه.

الكتاب:

قسم المؤلف كتابه إلى أربعة فصول:

الفصل الأول : في السادة الأشراف.

الفصل الثاني : في العلماء الطيبين الأوصاف.

الفصل الثالث : في العلماء الكرام.

الفصل الرابع : في الأدباء الفخام.

ويبدو أن القاعدة التي اتبعها المؤلف في تجزئته لكتابه تستند إلى النظام الاجتماعي السائد في تلك الفترة، أكثر من استنادها على مقاييس أدبية محددة. كما أننا نلاحظ عدم قدرته على توضيح الأسس العلمية التي انطلق منها في التمييز بين أدباء الفصلين الثاني والثالث، وكان بالإمكان أن

يخصهم بفصل واحد، ما داموا جميعا ـ حسب عبارته ـ من طائفة العلماء. ولربما كان المؤلف في تقسيمه لفصول الكتاب، حسب هذا النظام، مدفوعا بالرغبة في اتباع من سبقه من المؤلفين كابن معصوم(١٠) في كتابه السلافة،(١١) مع أن الأسس الأدبية التي انطلق منها «ابن معصوم» في ترتيبه لأجزاء كتابه تختلف عنها عند «الداغستاني» في كتاب «التحفة».

أشار المؤلف في مقدمة كتابه إلى قضية تدهور حال الأدب في عصره، ولربما كان من الأولى أن نثبت، من هذه المقدمة، ما يكون دليلا على تنبه «الداغستاني» لهذه القضية التي لم يشغل المؤلفون ـ حينئذ ـ بمناقشتها.

يقول المؤلف:

مضى الزمن الذي كان فيه ... لأهل الشعر عز وارتفاع

فإن الشعر في ذا العصر علم ... قليل الحظ، ملفوظ، مضاع

ولئن هجر الأدب مليا، وأصبح نسيا منسيا، فإن لزنده وريا يلتمع سقطه، ولمزنه ودقا يستدر نقطه، والمرتدي بفاخر مطارفه بين الأخدان والأقران يُشَارُ إلى مجده بالسلام والبنان، خصوصا أن نظم في سلك التحايف زبرجده، وسلك في قالب الظرايف عسجده.(١٢) ويرى الدكتور عبدالرحمن الشامخ أنه على الرغم مما في إشارة «الداغستاني» هذه من تنبيه إلى طبيعة الذوق الأدبي من صحة وسلامة، إلا أن شكاته لم تكن إلا استجابة لروح الحنين إلى الماضي، لما يتضمنه كتابه من نصوص مفتقرة إلى الروح الأدبية والموهبة الفنية.(١٣)

ولئن أظهر المؤلف قدرة أدبية في تدوين الإنتاج الفني لأدباء المدينة، في فترة القرن الثاني عشر، فإنه استطاع ـ أيضا ـ أن يدلل على ثقافته بما عقده من مقارنات بين هذا الإنتاج، وما يماثله ـ من ناحية المعنى ـ عند بعض شعراء العصر العباسي، كأبي نواس والبحتري، وبعض شعراء العصر المملوكي، مثل: مجير الدين بن تميم، وصفي الدين الحِلّي، وجمال الدين ابن نباتة، وهذه الدراسة المقارنة التي توصل إليها «الداغستاني» هي مما يزيد في أهمية الكتاب، من حيث اعتباره مصدرا رئيسيا للبحث في النواحي الفنية

للشعر في تلك الفترة الزمنية، والتي يجب أن تحظى باهتمامات النقاد ودراساتهم العلمية.

الاحـــالات:

(١) يقوم كاتب هذه الدراسة بالاشتراك مع سعادة الدكتور بكري شيخ أمين بتحقيق هذا الكتاب. اعتمادا على مصادره الخطية الموجودة في مكتبات العالم.

(٢) عمر بن عبدالسلام الداغستاني الأنصاري المتوفى بعد عام ١٢٠١هـ/١٧٨٦م، انظر ترجمته في تحفة المحبين والأصحاب فيما للمدنيين من أنساب لعبدالرحمن الأنصاري، ص ٢٢٩ ـ ٢٣١، والمنهل «عدد أبريل» ١٩٦٩م، ص ٢٥٢ـ٢٥٦. مقالة الشيخ محمد سعيد دفتردار ـ رحمه الله ـ عن آل الداغستاني. وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، لعبدالرزاق البيطار، طـ: مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٦١م، ج ٢، ص ١١١٥ ـ ١١٢٩.

(٣) المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني ـ لصلاح الدين المنجد، ١٩٦٤م، ص ٧٤.

(٤)

E. G. Browne Ahand List OFth Muhamadan Manu Scripts Preserved In The University Of Camgridge Camgridge/ 1900 / P. 38

(٥) محمد خليل بن علي بن محمد بن محمد مراد الحسنى ١١٧٣هـ ـ ١٢٠٦هـ ولد ونشأ في دمشق، وتوفى في حلب: من أشهر كتبه «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» انظر الأعلام للزركلي، ط ١ دار العلم، ج ٦، ص ١١٨.

(٦) معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة (دمشق) ١٩٥٧ ـ ١٩٦١م، ج ٦ ص ٢٩٠.

(٧) الحركة الأدبية في بلاد الشام، لأسامة العانوتي ـ بيروت ١٩٧١، ص ٢١١.

(٨) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزء الحادي والأربعون، جمادى الأولى، ١٣٩٨ـ ص ٤٣ـ٤٧. بحث الدكتور إسحاق موسى الحسيني عن موسوعة أعيان القرن الثاني عشر.

(٩) محمد بن محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسنى الزبيدي ١١٤٥ـ١٢٠٥هـ، علامة باللغة والحديث، والرجال والأنساب، أصله من واسط مدينة بالعراق ومولده بالهند في (بلجرام)، ومنشؤه في زبيد باليمن، رحل إلى الحجاز وأقام بمصر وتوفى بها، انظر الأعلام للزركلي، ط، دار العلم، ج ٧، ص ٧٠.

(١٠) علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسنى الحسيني المعروف بعلي خان، الشهير بابن معصوم «١٠٥٢ـ١١١٩هـ» من كتبه: سلافة العصر في محاسن أعيان العصر ـ الأعلام للزركلي، ج ٤، ص ٢٥٨ـ٢٥٩.

(١١)

THE LITERATURE OF MEDINAIN IN THE TWELFTH CENTURY A.H. EXAMINED FROM CONTEMPORARY SOURCES A thesis Presented Forth Degree of Ph. D - By: A Sim. H. A. Hamdan Man Che stre University/ 1986 /Part/one/PP- 67-71.

(١٢) مخطوطة تحفة الدهر للداغستاني، ص ٢.

(١٣) النشر الأدبي في المملكة العربية السعودية (١٩٠٠ـ١٩٤٥) للدكتور محمد عبدالرحمن الشامخ، الرياض، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م ص ٣٦ـ٣٧.

عبدالرحمن الأنصاري وكتابه تحفة المحبين

** من الكتب الهامة في تاريخ أسر المدينة المنورة وتراجم رجالها، كتاب «تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب» لمؤلفه عبدالرحمن بن عبدالكريم الأنصاري.(١)

يذكر المؤلف في المقدمة التي وضعها لكتابه أنه رغب في تخصيصه «بذكر أنساب أهالي المدينة المنورة الموجودين من حين تاريخ هذا الكتاب».(٢) كما يذكر في الجزء الخاص بترجمة الأنصاري - الذين ينتسب إليهم - أنه ألف كتابا خاصا بتراجمهم دعاه «نشر كمائم الأزهار المستطابة في نشر تراجم أنصار طابة».(٣)

وقد علل الأنصاري وضعه لهذه المؤلفات لأن المؤرخ «السخاوي»(٤) في كتابيه «الضوء اللامع»(٥) و «التحفة اللطيفة»(٦)، أهمل كثيرا من فروع هذا المجموع «أي آل الأنصاري» وذلك من قلة العلم بأصولهم وعدم تفصيلهم(٧)، ولهذا جاء وعد الأنصاري بتكملة ما أهمله السخاوي في العبارات التوكيدية التالية «وسنتتبع - إن شاء الله تعالى - ما أهمله ونلحقه بما أجمله، وأيضا نلحق من ولد وحدث بعد وفاته - أي: السخاوي - إلى تاريخ هذا الكتاب وإثباته على نمط حسن وضبط مستحسن».(٨)

* * *

** ويؤكد الأستاذ محمد العروسي المطوي على أهمية كتاب التحفة «وأنه ليس مجرد كتاب أنساب فقط، كما يدل عليه عنوانه، بل هو بالإضافة إلى ذلك يصور مجتمع المدينة المنورة في القرن الثاني عشر للهجرة في مختلف أوضاعه الساسية والاجتماعية والاقتصادية».(٩)

لقد رتَّب الأنصاري أسماء الأسر المدنية في كتابه التحفة حسب حروف المعجم، مزودا القارىء بالمعلومات الضرورية عن الموطن الأصلي لكل أسرة من الأسر - قبل هجرتها إلى المدينة - كما أنه يعلل ألقابها الناتج بعضها عن الحِرف التي كان يقوم بها بعض أفراد هذه الأسر.

ولقد عمل الأنصاري في كتابه على تسجيل المعلومات الخاصة بأفراد كل أسرة من ناحية الوظائف التي شغلوها، إضافة إلى محاولة تقييمه للسلوك الشخصي لهؤلاء الأفراد وخصوصا فيما يتعلق بطرق معاملاتهم مع نظرائهم في المجتمع. وقد شمل هذا الأسلوب التقييمي أفرادا من أسرة الأنصاري التي ينتمي إليها المؤلف.

كما نجد اهتمامات المؤلف تدفعه من خلال تقصيه لبعض الحوادث التي كان ضحيتها بعض الأفراد من إعطاء صورة محددة الملامح للحالة الأمنية التي كانت تعيشها المجتمعات خلال القرن الثاني عشر الهجري، فهو مثلا يذكر أنَّ شخصا قُتِلَ على يد الأعراب في مكة سنة ١١٧٦هـ[١٠]، وشخصا آخر من أفراد المجتمع المدني قتل في استانبول سنة ١١٣٦هـ[١١]، وآخر اغتيل في مصر سنة ١١٧٢هـ[١٢]، بينما اغتيل أشخاص في المدينة نفسها، وقد تمت بعض عمليات الاغتيال هذه في أحوال مختلفة، ولعله من أغربها هو ما حدث لأحدهم من اعتداء على حياته أثناء أدائه للصلاة.

ولكن المؤلف الذي اهتم بتسجيل هذه الحوادث التي وقع بعضها داخل المجتمع المدني، والبعض الآخر خارجه، لم يعطنا تفسيرا لوقوع هذه الحوادث الأليمة، وإن شَذَّ أحيانا في ذكر سبب القتل - وخصوصا عندما يتعلق الأمر بإصدار أمر من حاكم البلدة بقتل أحد الاشخاص، فإن السبب لا يكون مقنعا. فلقد ذكر المؤلف أن رجلا صدر أمر بقتله لأن الأهالي تضايقوا من سلوكه الشخصي.[١٤]

من حيث النواحي الاقتصادية للمدينة في القرن الثاني عشر الهجري لا نجد وصفا دقيقا يمكن الاعتماد عليه أو الرجوع إليه فيما يتصل بهذه الحياة، إلا أن المؤلف لم يغفل ذكر الوظائف التقليدية التي كانت بعض الأسر تعتمد عليها في تسيير شؤون حياتها، كوظائف الخطابة في المسجد النبوي الشريف[١٥]، أو الكتابة في ديوان الحاكم أو الأمير.[١٦] بينما اشتغل البعض بالتجارة، ومنها التجارة في العطارة وبيع الأقمشة،[١٧] وانصرف البعض إلى استغلال الأراضي وزراعتها والاستفادة من محصولها.[١٨]

كما لا ينسى المؤلف أن يشير - عرضا - إلى نظرة المجتمع - حينذاك - إلى الاشتغال بالمهن والصناعات. وهي نظرة يشوبها شيء من الازدراء.[١٩]

كتاب الأنصاري يعتبر دليلا واقعيا على خطأ الرأي الذي ذهب إليه بعض الباحثين، وخصوصا المستشرق فرانز روزنتال[٢٠] من أن كتابة تاريخ المدينة المنورة لم تحظ بالجانب السِّيري، ويُعتبر مؤلف الأنصاري حلقة في سلسلة الكتب التي عنيت بتدوين تراجم رجال البلدة الطاهرة بدءا من القرن الثامن الهجري، وكان من أهمها كتاب ابن فرحون[٢١] المعروف باسم «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» وكتابه «الإعلام فيمن دخل المدينة من الأعلام» للمطري،[٢٢] ثم تبع هذين المؤلفين المؤرخ السخاوي فألف كتابه «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة»، وعني فيه بتراجم رجال المدينة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى عهد المؤلف، وهو القرن التاسع الهجري.

الإحالات:

(١) عبدالرحمن بن عبدالكريم بن يوسف الأنصاري، ينتسب إلى أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي، ولد في المدينة سنة ١١٢٤هـ - ١٧١٢م، تلقى تعليمه في مدرسة الحديث بالمدينة، وأصبح مؤرخ المدينة في عصره، توفي بالمدينة سنة ١١٩٧هـ - ١٧٨٢م، انظر ترجمته في المصادر التالية.
تحفة الدهر ونفحة الزهر في شعراء المدينة من أهل العصر، لعمر بن عبدالسلام الداغستاني «مخطوط» ص: ٦١، وفي معجم المؤلفين لكحالة، ص ١٦٤، وفي المدينة المنورة في التاريخ لعبدالسلام هاشم حافظ، ط ٢، ١٣٨١هـ - ١٩٧٢م، ص ١٥٣، وفي سلك الدرر للمرادي، ج ٢، ص ٣٠٢، وفي هدية العارفين للبغدادي، ج ١، ص ٥٥٥، وفي الأعلام للزركلي ج ٦، ص ٨٣.

(٢) تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب، لعبدالرحمن الأنصاري، تحقيق: محمد العروسي المطوي، تونس، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، ص ٢.

(٣) لا نعلم شيئا عن هذا الكتاب الذي خصصه الأنصاري لتراجم آل الأنصاري، وذكر اسمه في كتابه التحفة.

(٤) محمد بن عبدالرحمن بن محمد السخاوي، ولد في القاهرة ٨٣١هـ، ١٤٢٧م، وتوفي بالمدينة ٩٠٢هـ - ١٤٩٧م.
انظر: علم التاريخ عند المسلمين، لفرانز روزنثال ترجمة الدكتور أحمد صالح العلي، بغداد، ١٩٦٣، ص ٣٧١.

(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، نشر في القاهرة سنة ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م.

(٦) التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، نشر في القاهرة سنة ١٣٧٦هـ، بتقديم الدكتور طه حسين، وعناية «أسعد طرابزوني» ثم في طبعة ثانية سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٧) تحفة المحبين، ص ١٤.

(٨) المصدر السابق : ص ١٤.

(٩) المصدر السابق : تقديم المحقق «و».

(١٠) المصدر السابق : ص ١٢٦.

(١١) المصدر السابق : ص ١٩.

(١٢) المصدر السابق : ص ١٣٥.

(١٣) المصدر السابق : ص ٨٠.

(١٤) المصدر السابق : ص ١١٨.

(١٥) المصدر السابق : ص ١٧.

(١٦) المصدر السابق : ص ١٢٣.

(١٧) المصدر السابق : ص ١٠٦.

(١٨) المصدر السابق : ص ١١٦.

(١٩) المصدر السابق : ص ١٦٩.

(٢٠) F. Rosental: History of Muslim Historiogrphy (Leiden, 1952, P. 142)

(٢١) عبدالله بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي، ولد في سنة ٦٩٣هـ، وكانت وفاته سنة ٧٦٩هـ، انظر ترجمته في: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني (تحقيق محمد جاد الحق) ط ٢، ١٣٨٥هـ، ج ٢، ص ٤٠.

(٢٢) عفيف الدين عبدالله بن محمد بن أحمد المطري، المتوفى سنة ٧٦٥هـ - ديسمبر ١٣٦٣هـ.
انظر: علم التاريخ عند المسلمين لروزنتال، ص ٥٥٦.

الأخبار الغريبة فيما وقع بطيبة الحبيبة

** المؤلف: السيد جعفر بن حسين بن يحيى بن هاشم المدني، المنتسب إلى السيد إبراهيم الموسوي الرومي. الذي استقر بالمدينة مجاوراً، في القرن الحادي عشر الهجري، وعلى وجه التحديد ـ كما يذكر المؤرخ عبدالرحمن الأنصاري ـ سنة ١٠٧٠هـ(١) ويبدو أن أسرة آل هاشم عرفت بتوجهها العلمي والأدبي فمنهم: السيد هاشم، الذي تولى كتابة المحكمة الشرعية بالمدينة. كما تولى أمانة مدينة ينبع.(٢)

ومن هذه الأسرة أيضا: السيد حسين، والذي يصف «الأنصاري» إنتاجه الأدبي بقوله: «كان له نظم رائق، ونثر فائق».(٣)

أما السيد يحيى، الذي تولى وظيفة كاتب المحكمة، فهو صاحب مؤلف مخطوط في الأدب يعرف بـ «الفلك المشحون»، وقد اطلعت على هذا الكتاب في نسخته الأصلية المحفوظة بمكتبة عارف حكمت بالمدينة.(٤)

* * *

** أما بالنسبة لمؤلف «كتاب الأخبار الغريبة»(*) السيد جعفر فلم أتمكن من العثور على معلومات كافية عن حياته، إلا أن الأستاذ عبدالسلام هاشم حافظ يصفه بأنه كان واحدا من أدباء المدينة، وأن وفاته كانت بالمدينة سنة ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٣م، وأنه ترك مؤلفا في تاريخ المدينة،(٥) ولعله هو الكتاب الذي نحن ـ هنا ـ بصدد دراسته.

المادة العلمية في الكتاب:

** يبدو ـ من مقدمة كتاب «الأخبار» أن المؤلف رغب في تسجيل الحوادث الاجتماعية، التي برزت أثناء القرن الثاني عشر الهجري، في المدينة المنورة، وهذا ـ بطبيعة الحال ـ يستدعي الإشارة إلى الحالة السياسية للمدينة، وصلتها بالبلاد العربية الأخرى، كما يشير ـ في الوقت نفسه ـ إلى مركز المدينة ضمن إطار الدولة العثمانية، التي كانت تحكم

العالمين العربي والإسلامي، في تلك الفترة.

لقد بدأ المؤلف بذكر أهم الحوادث، التي وقعت في الفترة الزمنية ١١١١ـ١٢٠٣هـ، ويمكن تصنيف هذه الحوادث، التي يسميها الكاتب بالفتن ـ كما يأتي:

١ـ الفتنة الواقعة بين أهل المدينة، وبني علي، سنة ١١١١هـ، ويكتفي المؤلف في سرد تفاصيل هذه الفتنة نثرا، وبشيء يسير من الشعر الذي قيل أثناء تلك الفتنة.

ويذكر الأستاذ «عاتق بن غيث البلادي» نقلا عن ورقة من كتاب «الأخبار» قدمها له فضيلة الأستاذ «حمد الجاسر» أن هذه الواقعة كانت السبب الرئيسي وراء هجرة بني علي من المدينة إلى نجد.(٦)

٢ـ فتنة العهد: التي وقعت زمن شيخ الحرم «أيوب أغا» بين الأغوات وأهل المدينة، سنة ١١٣٤هـ، ويعتمد المؤلف ـ في وصف هذه الفتنة ـ على ملحمة الشاعر جعفر البيتي،(٧) المكونة من أربعة وتسعين بيتا من بحر الكامل.

٣ـ فتنة بشير أغا، بين أغوات الحرم النبوي الشريف، وأهل المدينة، واشتركت فيها فروع من قبيلة حرب، سنة ١١٤٨هـ، ويعتمد المؤلف ـ كذلك في وصف أحداث هذه الفتنة ـ على ملحمة الشاعر البيتي، التي أبدعها تحت تأثير الفتنة نفسها، والمكونة من أربعة وستين بيتا من بحر كامل.

٤ـ فتنة عبدالرحمن أغا الكبير، أو فتنة كابوس، وذلك سنة ١١٥٥هـ، واعتمد المؤلف ـ كما يذكر ـ على أفواه ثقات الناقلين لأخبار هذه الفتنة. وكذلك على قصيدة السيد البيتي، المكونة من مائة وثلاثة وستين بيتا من بحر البسيط، وقصيدة أخرى للشاعر محمد سعيد سفر(٨)، مكونة من مائة وستين بيتا من بحر الطويل.

٥ـ ويذكر المؤلف أنه فيما بين سنة ١١٨٧هـ إلى سنة ١١٩٤هـ وقعت في المدينة جملة فتن عظيمة فيما بين أهل المدينة بعضهم مع بعض، وفيما بينهم، وبين الشريف سرور(٩) وبين جماعة أهل اليمن، الذين وضعهم في القلعة.

النسخ الخطية من كتاب الأخبار:

* نسخة مكتبة آل الأنصاري بالمدينة[10]: «النسخة الأصلية»، وتقع في حوالي مائة صفحة، وفي كل صفحة ٢١ سطرا، كتبت هذه النسخة بخط جيد وواضح، وتوجد على هوامشها بعض التعليقات الموضحة لبعض المسائل. كما تم تشكيل بعض الكلمات في القصائد الشعرية، وقد فرغ المؤلف من كتابتها صباح يوم الثلاثاء غاية ذي الحجة الحرام سنة ١٣٠٦هـ.

* النسخة الثانية وتوجد بمكتبة الشيخ عبدالوهاب الدهلوي[11] ـ رحمه الله ـ التابعة لمكتبة الحرم المكي، وتقع في حوالي مائة وثماني عشرة صفحة، وفي كل صفحة ١٧ سطرا، ومع أنها كتبت بخط واضح إلا أنها لا تتضمن شروحا وتعليقات في هوامشها، مقارنة بالنسخة الأصلية، ولم يذكر فيها اسم الناسخ، أو تاريخ النسخ، إلا أنه ذكر ـ في نهايتها ـ أن النسخة ربما كتبت بخط المرحوم الشيخ إبراهيم الخربوتي أمين مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة.

مصادر الكتاب:

** لقد وعد المؤلف في المقدمة بذكر أسماء الكتب والمؤلفين الذين قام بالنقل عنهم في كتابه، ومن خلال التوثيقات العلمية، التي قام بها المؤلف، نستطيع أن نحدد مصادر كتاب «الأخبار» كما يلي:

١ـ مصادر تاريخية: وتشمل كتابي «أمراء البلد الحرام» و «أسنى المطالب» لأحمد دحلان.

٢ـ كتب التراجم والأنساب: وتشمل كتاب «تحفة المحبين والأصحاب فيما للمدنيين من أنساب» وكتاب «عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب»[12] لأحمد بن علي الحسيني المعروف بابن عنبة الداوودي، وكتاب «جوهرة العقدين في فضل الشرفين»[13] لنور الدين السمهودي.

٣ـ مصادر أدبية: كديوان السيد البيتي، إلا أنه لم يزودنا بأي معلومات عن النسخة الخطية لديوان هذا الشاعر، والتي اعتمد عليها في نقل القصائد المعنية. كما أن الشاعر لم يعن بذكر مصادر القصائد الشعرية الأخرى، والتي نظمها بعض شعراء تلك الفترة مثل محمد سعيد سفر، ويوسف الأنصاري، وأحمد الجامي.

٤ـ هناك بعض المصادر الأخرى، التي ذكرها الشاعر، إلا أننا لم نوفق في الوقوف عليها لمراجعة المادة العلمية المستقاة منها، ومن ثم تصنيفها وهي «الروض الأعطر» و «الدر النظيم».

٥ـ لم يرجع المؤلف إلى بعض المصادر المعاصرة، التي تحدثت عن هذه الفتن ككتاب «ذيل الانتصار لسيد الأبرار»[١٤] للسيد عمر بن علي السمهودي.[١٥]

أسلوب المؤلف في كتاب الأخبار:

* بما أن الكاتب عاش في فترة تميزت بتسرب الضعف إلى أساليب اللغة العربية: لذا فإن القارئ لكتاب «الأخبار» يمكنه ملاحظة استعمال المؤلف لبعض الكلمات العامية مثل خصماني، للدلالة على الأعداء، أو بعض التعبيرات الخاصة، مثل: «ينزلون صلاة الصبح» كما يمكن ملاحظة عدم اتباعه للقواعد النحوية الخاصة بالإضافة مثلا كقوله «مشبين الفتنة» بدلا من «مشبيِ الفتنة»، كما أن الكاتب ليس بدعا عن أدباء عصره الذين شغفوا بأساليب البديع في كتاباتهم، ولهذا نجد الكاتب في عبارة كهذه: «وقال له: أين المسرى، وقد دهمك البلاء من أمام وورا؟» يضطر إلى إسقاط الحرف الأخير لكلمة «وراء» وهو الهمزة حتى يتناسب المقطع الأول من العبارة مع مقطعها الثاني.

* يحاول الكاتب أن يبرز ثقافته الأدبية، أثناء سرده للحوادث التاريخية فيستشهد ببعض الأبيات الشعرية: وهي استشهادات يمكن اعتبارها دليلا على ذوقه الأدبي فكثيرا ما تصادفنا أبيات الشاعر «المتنبي» وأخرى للإمام «محمد بن إدريس الشافعي».

* يمتلك الكاتب حسا أدبيا نقدياً لا بأس به؛ فنجده ينتقد الشاعر «عبيد كدك» الذي حاول احتذاء الشاعر «البيتي» في بعض قصائده وزناً وقافية، ويصف إنتاج الأول بركاكة المعنى، واختلال النظام.

* يؤخذ على الكاتب عدم تثبته من بعض الروايات التاريخية التي ذكرها مؤلفون سابقون كنقله العشوائي لبعض القصص، التي ذكرها الشاعر «ابن عنبه» في ديوانه، أو في كتاب «عمدة الطالب».

أهمية الكتاب العلمية:

** تنبع قيمة الكتاب العلمية من تتبع الكاتب للحوادث التاريخية في المدينة. في فترة القرن الثاني عشر الهجري، والتي لم تحظ بالدراسة العلمية الوافية رغم أهميتها، وتكتسب هذه الفترة أهميتها من العوامل التالية:

* ظهور عدد من الدعوات الإصلاحية، في العالم الإسلامي، ولقد كانت المدينة المنورة، بحكم قدسيتها، مركزا دينيا هاما تلقى العديد من الشخصيات الفكرية، في مسجدها الشريف، جزءا من دراستهم العلمية على يد بعض علمائها كالشيخ إبراهيم الكوراني(١٦)، والشيخ أبي الطاهر الكوراني(١٧)، والشيخ محمد حياة السندي(١٨)، والشيخ عبدالله بن سيف والشيخ سليمان الكردي(١٩)، رحمهم الله جميعا.

* وقع المجتمع المدني تحت تأثير تغييرات اجتماعية كثيرة في هذه الفترة الزمنية بسبب عامل الهجرة إليها من جميع أنحاء العالم الإسلامي. ولعل في ذلك ما يلقي الضوء على ذلك الاتجاه العلمي، الذي ظهر لدى بعض أدباء المدينة في تلك الفترة وهو التأليف في علم أنساب الأسر وما يتصل بوجودها في المجتمع المدني من حِرف، وأعمال ووظائف، وما يتصف به أفرادها من أخلاق وطباع.

* شهدت هذه الفترة صراعا شديدا بين المواطنين في مجتمع المدينة، وبين المسؤولين عن إدارة شؤونها الذين كانوا أغوات يتولون مشيخة الحرم النبوي الشريف، ويبدو أن الدولة العثمانية كانت تتولى تعيين هؤلاء الأغوات الذين لم يحسنوا، في فترة القرن الثاني عشر الهجري، تصريف أمور البلدة المقدسة.

* لقد كانت فترة القرن الثاني عشر الهجري فترة متميزة من حيث الإنتاج العلمي، حيث ساهم هؤلاء الأدباء في إمداد القصيدة العربية بزخم شعري جديد، كما حافظوا على شكلها التقليدي بما أبدعوه من قصائد سموها «ملاحم شعرية» وهي قصائد تعكس - بكل صدق - الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية للمدينة في تلك الفترة وتشكل هذه القصائد مصدرا رئيسيا لتاريخ المدينة.

الإحالات:

(١) عبدالرحمن الانصاري: «تحفة المحبين والاصحاب فيما للمدنيين من أنساب»، تحقيق محمد العروسي المطوي، تونس، ١٩٧٠.

(*) انتهيت - بتوفيق الله - من تحقيق هذا الكتاب، وسوف أدفع به للنشر - قريبا - بإذن الله. ص ٤٨٨.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٤٨٨.

(٣) نفس المصدر السابق ص ٤٨٩.

(٤) يحيى هاشم المدني: «الفلك المشحون» مخطوطة مكتبة عارف حكمت بالمدينة، رقم ٣٢٠٤.

(٥) عبدالسلام هاشم حافظ: المدينة المنورة في التاريخ، القاهرة ط ٢، ١٣٨١هـ، ١٩٦١م، ص ١٦١.

(٦) عاتق بن غيث البلادي: «نسب حرب مكة المكرمة»، ط ٣، ١٤٠٤هـ، ص ١٦٥-٨١٦٦.

(٧) السيد جعفر البيتي العلوي السقاف، ولد في المدينة سنة ١١١٠هـ، من أشهر شعراء الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر الهجري. لا يزال ديوانه الشعري مخطوطا، وتوجد منه نسخ في مكتبة عارف حكمت بالمدينة، ومكتبة المدينة العامة، وطوبقبو سراى باستانبول، وبمكتبة المرحوم السيد عبيد مدني.
انظر ترجمته في «تحفة المحبين والأصحاب» لعبدالرحمن الأنصاري ص ٧١. وفي «هدية العارفين» لإسماعيل البغدادي استانبول: ١٩٥٥م، ج ١ وفى «الشعر الحديث في الحجان» للمرحوم عبدالرحيم ابي بكر، القاهرة ١٣٩٧هـ، ص ٦٩-٧٤.

(٨) محمد سعيد بن علي بن محمد أمين سفر، ولد في المدينة سنة ١١١٣هـ، سافر إلى مصر والشام، ثم عاد إلى المدينة ليصبح خطيبا وإماما، ثم تركهما، واشتغل بالتدريس، وكف بصره وتوفى سنة ١١٩٤هـ.
انظر: «تحفة المحبين والأصحاب» للأنصاري، ص ٢٨٥.

(٩) في الحروب التي وقعت بين أهل المدينة والشريف سرور بن مساعد بن سعيد بن زيد، انظر: «كشف الحجاب والستور عما وقع لأهل المدينة مع أمير مكة سرور»، مجلة العرب، ج ١١، ١٢ الجماديان سنة ١٤٠٦هـ.

(١٠) اشكر للشيخ الفاضل نذير محروس تزويدي بمصورة للنسخة الأصلية من كتاب «الأخبار الغريبة».

(١١) محمد صالح جمعة «فهرست مخطوطات الحرم المكي» تاريخ وتراجم، ١٣٩٢هـ، ص ١٠.

(١٢) جمال الدين احمد بن علي الحسنى «عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب»، بيروت، لجنة إحياء التراث.

(١٣) الكتاب لا يزال مخطوطا. وقد رجعنا إلى نسخة مكتبة الأوسكريال، رقم ١٥٣٣.

(١٤) الكتاب لا يزال مخطوطا، وتوجد نسخة منه بمكتبة آل الصافي التابعة لمكتبة المدينة المنورة العامة.

(١٥) ترجم له الانصاري قائلا: نشأ نشأة صالحة، واشتغل بطلب العلوم، ودرس بالروضة النبوية وصار مفتي الشافعية، وخطب، وأم، والف، وصنف، ونثر ونظم. (انظر: تحفة المحبين ص ٢٧٢-٢٧٣).

(١٦) إبراهيم بن حسن الكوراني: نزيل المدينة، ولد سنة ١٠٢٥هـ، وطلب العلم بنفسه ورحل إلى المدينة المنورة، وتوطنها واخذ بها عن جماعة من علمائها كأحمد بن محمد القشاشي، درس بالمسجد النبوي، والف مؤلفات عديدة، توفى بالمدينة سنة ١١٠١هـ.
محمد خليل المرادي سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر - ط بولاق ١٣٠١هـ، ج ١، ص ٥-٦.

(١٧) أبوالطاهر بن إبراهيم بن حسن الكوراني، ولد بالمدينة في سنة ١٠٨١هـ، أخذ عن والده وعن الشيخ عبدالله بن سالم البصري، والشيخ حسن العجيمي، تولى إفتاء الشافعية مدة إلى أن توفى سنة ١١٤٥هـ.

المؤلف مجهول، تراجم أعيان المدينة في القرن الثاني عشر الهجري ـ تحقيق الدكتور محمد التونجي، دار الشروق، ١٤٠٤هـ، ص ١٠٦.

(١٨) العلامة المحدث، المعروف بتصانيفه في علم الحديث: كشرح «الترهيب والترغيب»، و «مختصر الزواجر»، و «شرح الأربعين النووية»، توفي بالمدينة سنة ١١٦٣هـ.

نفس المصدر السابق ص ٦٨.

(١٩) الشيخ محمد بن سليمان الكردي الشافعي، ولد بدمشق، وحمل إلى المدينة وهو ابن سنة، ونشأ بها، وأخذ عن أفاضلها، وتولى بالمدينة إفتاء الشافعية سنة ١١٨٩هـ، وتوفى بالمدينة سنة ١١٩٤هـ.

المصدر السابق ص ٥٥.

منهج الشريف العياشي
في البحث التاريخي

*** عندما أتى الشيخ حمد الجاسر على ذكر أولئك الذين تصدروا لتاريخ المدينة المنورة، أو تراجم رجالها. نجده قد جعل كتاب «محمد بن زبالة المخزومي» الذي ألفه سنة ١٩٩هـ. أول كتاب عرف تاريخ هذه المدينة الطاهرة، التي لقيت اهتماما خاصا من أشهر المؤرخين والكتاب، على مر العصور الإسلامية، مثل: «ابن شبة»، و «ابن النجار» و «ابن فرحون» و «المراغي» و «السمهودي»، و «السَّخاوي» و غيرهم.(١)

*** وفي العصر الحديث تناول عدد من الكتاب جوانب معينة من تاريخ المدينة المنورة الحضاري، والإداري، والاجتماعي، ولكن مؤلفا واحدا ضمن هذه المؤلفات يظل متميزا، لما بذله فيه مؤلفه من جهد غير عادي، كان يشهد به ذلك الشحوب والهزال الباديان على مؤلف هذا الكتاب في أواخر حياته، ثم لذلك المنهج العلمي الدقيق الذي اتبعه الشريف «إبراهيم بن علي العياشي» فيما جمعه من معلومات، وما توصل إليه من نتائج، تتصل بتاريخ عاصمة الإسلام الأولى، ومنطلق حضارته، وموئل قادته وعظمائه.

*** وإذا كان «العياشي» استطاع أن يترك أثرا تاريخيا فريدا كهذا، إلا أنه لم يعرف عنه في مطلع حياته الاشتغال بالكتابة، أو البحث وما يتصل بهما من أمور، فلقد كان ـ رحمه الله ـ موظفا إداريا في شرطة المدينة المنورة، ثم نراه يترك المدينة ليسافر إلى الساحل الشرقي من جزيرة العرب، ثم يعرج على مدينة «ينبع» للإقامة فيها، ولكن الحياة لم تطب له إلا بعد أن عاد إلى مرابع صباه الأولى، حيث نجده مدرسا في بعض مدارسها الابتدائية، وإخَالهُ زَامَلَ الأستاذ «ضياء الدين رجب» في التدريس، كما ذكر لي هذا الأخير ـ رحمه الله ـ في إحدى رسائله الخاصة، قبل أن ينتقل إلى الدار الآخرة.

ولعل السر في توجه «العياشي» لتدوين تاريخ المدينة المنورة يعود إلى حبه للأرض التي شهدت ربوعها انطلاقة الإسلام الأولى، وهذا ما يمكن أن

نستشفه من تلك الكلمات الشاعرية التي صدّر بها مؤلّفه تحت عنوان «وهكذا كان الفضل».

يقول ـ رحمه الله ـ «كانت وليدة رغبة ملحة، بدأت معها أشق طريقي للغاية المرجوة، كنت بين جنان قباء وردهات صلحة، منها كنت أطل على واقم، وأسمع خرير العقيق، وأصعد على قِمَم أحد، وأسمع نشيد بنات النجار في الغيب...».

** والتزام «العياشي» بالمنهج العلمي، في دراسة آثار المدينة النبوية، يظهر في ذلك النقد الذي وجهه لمن سبقه من المؤلفين الذين كانوا يكتفون بتحديد الموضع، بقوله مثلا: «ونزل بنو فلان بدارهم المعروفة بهم» واصفا هذا التعريف للقارىء في هذا العصر، بأنه كمن عرف الشيء بنفسه، ولذا نجده ـ أي العياشي ـ في تحديد مساكن القبائل التي استقرت بالمدينة المنورة بدءا بالعمالقة، ومرورا باليهود، وانتهاء بالأنصار، ثم المهاجرين من بعدهم، يرجع إلى النصوص التي أوردها «الطبري» أو «ابن كثير» أو «السيد السمهودي» «يثبت ما توافق فيه النص مع التطبيق العملي، وينفي ما خالف هذه القاعدة العلمية، ولقد سمعته ـ في حياته ـ يتحدث عن قيمة كتب السمهودي» «وفاء الوفا» في تاريخ المدينة المنورة، وأنه يعد «السمهودي» أستاذا له، ولكنه أردف يقول: إنه يختلف معه عندما يجد ما كتبه لا تؤيده شواهد واقع الموضع أو الأثر نفسه.

وإنني لأذكر تلك الدهشة التي بدت على زميلي الدكتور «رشاد مفتي» في أثناء دراستنا في جامعة «لانكستر» بالمملكة المتحدة، بعد اطلاعه على كتاب «العياشي»، وذلك لارتباط دراسته «الجيولوجية» بحرة المدينة الشرقية، لقد كان سبب دهشته هو إلمام هذا الرجل بعلم «الجيولوجيا» واستفادته من بعض أسسه، وهو الذي لم يعرف عنه تلقيه لأي دراسة «أكاديمية» في معرفة تكوين الحرار في المدينة، وما يمكن أن تدل عليه صلابة أحجارها أو ألوانها، ثم ما تركته عوامل التعرية على كل حرة من هذه الحرار التي تشكل مظهرا طبيعيا خاصا بأرض المدينة.

** كنت أسأل هذا العالم التاريخي ـ رحمه الله ـ عن غزوة من غزوات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الهامة، وهي غزوة «أحد»، فلم يكتف بأسلوب السرد النظري الذي يأخذ به كثير ممن دونوا أخبار هذه الغزوات،

وما يرتبط بأحداثها من مواضع وأشخاص، بل قادني إلى منطقة أحد، وعين على الطبيعة الميادين الأربعة لتلك المعركة الشهيرة، حتى إذا ما سألته عن الموضع الذي كان الناس يسمونه المصرع وكان يقوم فيه بستان من بساتين المدينة القديمة، فإذا به يستوقفني ليقول: «إن الناس يتوهمون أن سيدنا حمزة بن عبدالمطلب ـ رضي الله عنه ـ قتل في هذا المكان. ولهذا يسمونه خطأ «المصرع»، وهو في حقيقة الأمر ميدان من الميادين المذكورة التي نشب فيها القتال بين المسلمين وكفار قريش، ثم يتوجه بي إلى مكان قديم كان يقوم بالقرب من منطقة قبور الشهداء، ويشير إلى صخرة من الحجر الجرانيت الأحمر، ليقول: «هذه الصخرة[٢]التي كان يختبيء ـ تحتها ـ وحشي، عندما عزم على قتل الشهيد حمزة بن عبدالمطلب ـ رضي الله عنهما».

** ثم شاهدته يُحدِّد على الطبيعة ـ أيضا ـ وبالقرب من جبل «سلع» موضع الخندق الذي حفره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حول المدينة المنورة في غزوة «الأحزاب» باستشارة «سلمان الفارسي» ـ رضي الله عنه ـ لقد كان ـ يومها ـ يومىء بعصاته التي كان يتوكأ عليها، إلى المواضع، وكأنه شاهد تلك الأحداث العظام، وعايش أبطالها من صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد حدثني كيف أن حفر ذلك الخندق في مدة وجيزة، وبأيد محدودة، لم يكن ليتم، لولا أن الله بارك لعباده المؤمنين في الزمن، فأنجزوه في الوقت المناسب، يصدون به العدو، ويصونون به البلد الطاهر من أن تنتهك حرمته التي بقيت مرعية على مر العصور، إلى وقتنا الحاضر.

** ويخرج «العياشي» كتابه «المدينة بين الماضي والحاضر» والذي لم يترك فيه منزلا من المنازل التي كان ينزلها صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا وأبرز موضعه، ولا مسجدا من المساجد التي ذكرها المؤرخون ـ قبله ـ إلا وأجلى حقيقة تاريخه، ولا جبلا من الجبال التي تقف شامخة في هذا البلد الطيب إلا وحدد طوله وعرضه، من جميع الجهات، ذاكراً الوديان التي تحيط به، وما يتجمع فيها من سيول، حتى إذا نَدّ عن ذكراته شيء من المعلومات يصوغ عبارته الوصفية لتتناسب مع المعلومة التي لا يعتقد بجزميتها: لذا نجده ـ في تحديد طول جبل «أحد» من الجهة الشمالية ـ يقول: «أما طوله من الجهة الشمالية فقد نسيت ضبطها، واعتقد أنه ستة، أو يزيد شيئا بسيطا».[٣]

** لقد خرجت تلك الموسوعة الشاملة في تاريخ المدينة المنورة، عام ١٣٩٢هـ، والتى استنفدت من مؤلفها ما يقرب من عقدين من الزمن، قضاها متنقلا ـ على قدميه ـ بين جبال المدينة وأوديتها، بعيدا عن أسرته التي أحبها، وأبناءه الذين كانوا في مرحلة الطفولة، ولم يحتفل بتلك الإضافة العلمية الجديدة إلا نفر محدود من الباحثين، في مقدمتهم الشيخ «حمد الجاسر» الذي أشاد بالكتاب ومؤلفه في «مجلة العرب».

وعاش «العياشي» بقية حياته حبيس داره المتواضعة، في حي قباء، ولكنه كان راضيا عن الجهد الذي قدمه لتوفر عامل الإخلاص، وأسس البحث العلمي، في كل فصل من فصول السِّفْر الذي ينير سبل المعرفة بتاريخنا الحي المشرق الذي شهدت أرض المدينة المنورة عظمة أحداثه، وبطولة رجاله، ثم يموت «العياشي» في شهر ربيع الأول من عام ١٤٠٠هـ.

وتعجز صحافتنا عن الإشادة الكافية بما أبدعه هذا المؤرخ الرائد في علم توثيق الخبر، وتتبع الأثر، بأسلوب علمي شامل يأخذ بكل ثابت في الرواية، ومنطبق مع حيثيات المنطق، نائيا بهذا عن كل ضعيف لا تقوم معه الحجة، أو أسطورة ترفضها حقائق الأشياء.(٤)

** وإنها لمناسبة كريمة في أن أتوجه إلى معالي أمين المدينة المنورة المهندس «عبدالعزيز الحصيِّن» ومساعده الصديق المهندس «أنور إلياس» في إطلاق اسم «الشريف إبراهيم بن علي العياشي» على معلم بارز من معالم المدينة المنورة تخليدا لذكراه، واعترافا بجهده في تاريخ هذا البلد الذي عرف بتقدير أولئك الذين ساهموا ـ بتجرد وإخلاص ـ في خدمته، أو شاركوا في بنائه الفكري والثقافي، وإنني على يقين من أن رجائي سوف يجد صدى إيجابيا لديهما، فهما أهل لكل فضل ومعروف، والله ولي التوفيق.

**** الاحالات :**

(١) محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: «المغانم المطابة في معالم طابة» تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة ـ الرياض، ١٣٨٩هـ، المقدمة ـ و ـ ، ولمزيد من التفصيل انظر ايضاً: صالح أحمد العلي «المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز»، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الحادي عشر (١٣٨٤ـ١٩٦٤م) مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٣٨٤هـ، ص ١٢٧ـ١٢٩.

(٢) إبراهيم بن علي العياشي: «المدينة بين الماضي والحاضر» (بدون تاريخ) ص ٥٣١ـ٥٣٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٢٢.

(٤) يستثنى من هذا «ملحق التراث»، الذي نشر بصحيفة المدينة المنورة بتاريخ ١٢ ربيع الثاني ١٤٠٠هـ مقالة لكاتب هذه السطور، بعنوان «إبراهيم العياشي موسوعة المدينة التاريخية، ومقالة أخرى للأستاذ «علي محمد حسون».

في رحاب المسجد النبوي

(١)

* امتد أثر الحرمين الشريفين في نشر الثقافة الإسلامية إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي وعلى مر العصور الإسلامية. ولقد كانت بداية تاريخ هذا التأثير على يد معلم البشرية الأول سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي جعل من مسجده الشريف مدرسة يتلقى فيها صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم، وهي المدرسة التي تخرج فيها عبدالله بن مسعود وأبو هريرة ومعاذ بن جبل وسعد بن معاذ وعبدالله بن عمر فكانوا أمثلة حية للشخصية الإسلامية التي تجمع بين نظافة السلوك وعمق المعرفة ورحابة الأفق.

ولقد قام المسجد النبوي الشريف بدوره القيادي في أحلك الظروف التي مرت بها الأمة الإسلامية، ففي القرن الحادي عشر الهجري تصدى للتدريس فيه، الشيخ إبراهيم الكوراني ١٠٢٥ ـ ١١٠١هـ الذي أخذ العلم عن الثقات من الشيوخ في بغداد، ودمشق، ومصر، ثم ألقى عصا التسيار بالمدينة المنورة ليصبح حجة في علم مصطلح الحديث، وتنتهي إليه الرواية في هذا العلم الإسلامي في عصره، فيشد الناس رحالهم إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجلسوا في حلقته، ويتزودوا بزاد العلم والمعرفة الحقيقيين.

ولم ينقطع العلم عن آل الكوراني فنجد ابنه الشيخ محمد أبا الطاهر الكوراني ١٠٨١ـ١١٤٥هـ الذي لم يكتف بطلب العلم على يدي والده، بل ارتحل أيضاً ليجتمع بعلماء عصره. من أمثال الشيخ عبدالله بن سالم البصري، والشيخ حسن العجيمي والشيخ محمد البرزنجي، مما أهله للإفتاء في علوم الفقه والحديث.

وعندما قام شاه ولي الله الدهلوي رحمه الله بزيارة الحرمين الشريفين في الفترة ١١٤٣ـ١١٤٥هـ اجتمع بالشيخ أبي الطاهر الكوراني في المدينة وأخذ علوم الشريعة عنه مما أهله ليكون أحد الشخصيات البارزة في تاريخ الهند الإسلامية ولقد بذل الشيخ الدهلوي، (كما يذكر الدكتور جمال الدين

الشيال في كتابه عن الحركات الإصلاحية) بذل جهودا كبيرة للدفاع عن أهل السنة، وألف كتاب «إزالة الخفاء عن تاريخ الخلفاء» حيث أثبت فضل الخلفاء الراشدين، كما فصل فيه القول على أسس الحكومة الإسلامية الأولى وما بذلته من جهود لنشر الإسلام. وسعى الدهلوي ـ رحمه الله ـ لتوضيح أهمية علمي الفقه والحديث وضرورة العناية بهما ودراستهما لفهم حقيقة الإسلام، حيث كان العلماء الهنود في عهده يعتمدون كثيرا على علم الكلام، ويعتقدون أنه قوام الدين وروحه، كما بدأ بدعوة مواطنيه إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة وكان في دعواه ودروسه وفي مؤلفاته يسعى دائما للتوفيق بين مذاهب الأئمة فإن تعذر عليه ذلك أخذ ما يوافق الأحاديث الصحيحة، ورجحه على غيره وقد طبق طريقته هذه تطبيقا ناجحا في كتابه الرائع «حجة الله البالغة» وفي كتيبه الصغير «الإنصاف في بيان أسباب الخلاف».

إنه أحد دعاة الإصلاح الإسلامي في القرون المتأخرة ويعد ثمرة من ثمرات الارتحال في طلب العلم إلى الديار المقدسة. وما أكثر ثمرات هذا البلد في الماضي والحاضر.

(٢)

* لقد حفل الحرم النبوي الشريف في القرن الثاني عشر الهجري بحلقاته العلمية المتعددة، ومن هذه الحلقات ما كان مختصا بعلوم اللغة والأدب، مثل حلقة الشيخ محمد بن محمد الطيب الفاسي الذي كان تلميذا من تلامذة الشيخ محمد أبي الطاهر الكوراني الذي مررنا على ذكره في الحلقة الأولى من هذه الدراسة. لقد كان الفاسي كما يصفه مؤلف كتاب تراجم أعيان المدينة في القرن الثاني عشر الهجري، إماما في اللغة العربية في وقته. محققا. فاضلا، متضلعا في كثير من العلوم، ولعل قائمة أسماء مؤلفاته تؤيد هذا القول الذي ذهب إليه مؤلف كتاب التراجم، وللشيخ الطيب شرح على معجم «القاموس» للفيروزآبادي وشرح نظم الفصيح، وشرح كافية ابن مالك، وشرح شواهد الكشاف للزمخشري.

كما حفل بحلقات أخرى كانت مختصة بالحديث وعلومه، ومنها حلقة الشيخ محمد حياة السندي. الذي تلقى علومه من مشايخ عدة يأتي في مقدمتهم الشيخ أبي الحسن بن عبدالهادي السندي، والشيخ محمد أبي الطاهر الكوراني ثم تصدى للتدريس بعد وفاة شيخه السندي واستمر يؤدي رسالة التدريس في حرم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأكثر من عشرين سنة. وأثمرت هذه السنون عن تأليفه لكتب هامة؛ شرح الترهيب والترغيب ومختصر الزواجر لابن حجر وشرح الأربعين النووية المعروف باسم تحفة المحبين في شرح الأربعين. ولعله من المفيد أن ننقل هنا عبارات الدكتور عبدالله العثيمين في كتابه: «الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره» عن الشيخ محمد حياة السندي، أما محمد حياة السندي فكان حجة في الحديث وعلومه وصاحب مؤلفات مشهورة في هذا الحقل. وكان أستاذا لعدد من الطلاب الذين أصبح بعضهم دعاة إصلاح أو شخصيات علمية مشهورة في مناطق إسلامية عديدة. ويؤكد الدكتور ابن عثيمين أثر الشيخين محمد بن حياة السندي، والشيخ عبدالله بن سيف، على الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ لا بالنسبة لتحصيله العلمي فقط وإنما بالنسبة لاتجاهه

الإصلاحي أيضاً.

ومن علمـاء المدينة في هذه الحقبة المؤرخ عبدالرحمن بن عبدالكريم الأنصـاري ١١٢٤ـ١١٩٧هـ الذي تلقى علومـه في مدرسة الحديث التي نشـأت في المدينة خلال القرن الثاني عشر الهجري. حيث نلاحظ خلال ترجمته أنه تلقى العلم على الشيخ محمد أبي الطاهر الكوراني، وأبي الطيب السندي. ومحمد بن الطيب الفاسي.

* ينعته المرادي في كتابه سلك الدرر. بمؤرخ المدينة في عصره كما يذكـر عمـر الداغستاني وهو معاصر له بالمدينة أنه ألف تاريخا جمع فيه بيوتات أهل المدينة.

وعبـارة المـرادي على قصـرهـا تحمل دلالة واضحة على أهمية كتاب الأنصاري المسمى «تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب».

فهو كما ذكر محقق الكتاب الأستاذ محمد العروسي المطوي ليس مجرد كتـاب أنساب فقط كما يدل عليه عنوانه، بل هو بالإضافة إلى ذلك يصور مجتمـع المـدينـة في القـرن الثاني عشر من مختلف أوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما يُمكّن الدارس وبخاصة الاجتماعي من تلمس العناصر والمعطيات للدراسة والتحليل والاستنتاج.

* لم يذكـر الأنصـاري سببا لتأليف كتابه «التحفة» إلا أنه يشير عند ترجمتـه لآل الأنصـاري إلى أن المؤرخ السخاوي أهمل كثيرا في كتابيه «التحفـة اللطيفـة في تاريخ المدينة الشريفة» و «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع»، من فروع هذا المجموع ـ أي آل الأنصاري ـ وذلك من قلة العلم بأصولهم وعدم تفصيلهم ولعل هذا ما حدا بالأنصاري أن يؤلف كتابه هذا وكتابا آخر في تاريخ أنساب أهل المدينة لا نعرف عنه إلا اسمه وهو «نشر كمائم الأزهار المستطابة في نشر تراجم أنصار طابة».

* والأنصاري من خلال الترجمة التي كتبها لنفسه يبدو أنه أحد أولئك العلماء الذين تجولوا في بعض البلاد العربية والإسلامية يحدوهم في ذلك الرغبة في طلب العلم والاستزادة من معطيات المعرفة فهو يسافر إلى بلاد

اليمن سنـة ١١٧٢/هـ ويدون وقائع رحلته في كتابه المعروف باسم «قرة العيـون في الرحلة إلى اليمن الميمـون» كمـا يشيـر إلى اهتمامه بالأدب وبالشعر خاصة وذلك عند ذكره لزيارته لإمام اليمن - خلال الرحلة التي قام بها لهذا القطر - حيث مدحه بقصيدة بائية في سبعين بيتا وهذا يؤكد ما نذهب إليـه من احتكـاك علماء الحرمين الشريفين واتصالهم بنظرائهم في البلاد الإسلامية، وهو اتصال كانت له ثمراته المباركة وآثاره الحسنة والله ولي التوفيق.

(٣)

* لقد استمرَّ المسجد النبوي في أداء رسالته العلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، ولقد كان مرد تلك الاستمرارية إلى طبيعة الأجواء الفكرية والعلمية التي يتمتع بها مجتمع المدينة والتي عرف بها على مر العصور الإسلامية. ولا شك في استفادة مجتمع المدينة العلمي من هجرة العلماء الأفذاذ الذين استقر ببعضهم المقام في الأرض الطيبة، بينما بقي البعض لفترة معينة من الزمن وفي كلتا الحالتين فإن هذه الهجرة كان لها آثارها الواضحة في إمداد المجتمع بإشعاعات العلم والمعرفة. وفي تثبيت دعائم الفكر الإسلامي بين طبقات الناس المختلفة.

* لقد جاور بالمدينة علماء أفذاذ، وكانوا على قدم راسخة في علوم الشريعة واللغة العربية. ومن هؤلاء الأعلام، الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي ١٢٤٥ ـ ١٣٢٢هـ. وهو العالم الذي انتدبته الدولة العثمانية في عهد السلطان عبدالحميد الثاني إلى باريس، ولندن، والأندلس، للاطلاع على ما في خزائنها من الكتب العربية النادرة، وتقييد أسماء ما يوجد منها بخزائن القسطنطينية لتستنسخ، فسافر على باخرة خاصة، وكان ينزل حيثما حل دور السفارات ولكن المشروع أهمل بعد عودته.

* وفي عام ١٣٠٦هـ أرسل ملك السويد والنرويج أوسكار الثاني إلى السلطان عبدالحميد، مبديا رغبته في أن يقوم الشيخ التركزي ـ نفسه ـ بحضور مؤتمر المستشرقين الثامن المنعقد في مدينة استكهولم ولقد قام سفير السويد بمصر في ذلك الوقت، الكونت كارلو دى لندبرج بالإشراف على متطلبات الرحلة، حيث اشترط الشنقيطي عدة شروط قبيل القيام برحلته منها أن يكون توجهه بصفة ترفع الإسلام وأهله، وبأن ينتخب ثلاثة أو أربعة من أهل العلم بالعربية، ويستصحب مؤذنا وطهاة مسلمين. كما طلب السفير المذكور أن يقوم الشنقيطي بإنشاء قصيدة على أسلوب شعر العرب السابقين لا على أسلوب الشعراء في تلك الحقبة. ولقد قام الشنقيطي بإنشاء القصيدة المطلوبة والتي قاربت حوالي مائتي بيت من الشعر الرصين ولكن

الرحلة لم تتم. لأن الشروط التي اشترطها أغضبت السلطان، فأمر بسفره إلى المدينة.

* وقام الشنقيطي في المدينة باستنساخ عدة كتب منها: أساس البلاغة للزمخشري، وبعض الدواوين الشعرية، ويبدو من الكتاب الوحيد المطبوع له وهو «الحماسة السنية الكاملة المزية» أنه كان على صلة وثيقة في بداية أمره، بعلماء المدينة في تلك الفترة من أمثال عبدالجليل برادة. وإبراهيم الأسكوبي، كما تثبت مصادر أخرى قيام علاقة علمية بينه وبين الشيخ أمين ابن حسن الحلواني المدني. ولكن الشنقيطي والحلواني لم يستقرا بالمدينة، فنزحا إلى مصر. ولقد أحضر الشنقيطي مكتبته من المدينة، وأقبل على المطالعة والإفادة إلى أن توفي بدار سكنه القريبة من الأزهر سنة ١٣٢٢هـ ومثله الحلواني الذي أحضر مكتبته التي تحتوى على نفائس المخطوطات وفي مختلف الفنون. والتي قامت مؤسسة بريل E.J.Brill في ليدن. Ledien بشرائها منه لتصبح جزءا من مقتنيات هذه المؤسسة المعروفة باحتوائها على نوادر المخطوطات العربية حتى الوقت الحاضر.

(٤)

مع حلول شهر رمضان تتداعى إلى ذاكرتي صورة أحد شيوخ الحرم النبوي الشريف، تلك الصورة المكللة بجلال الإيمان، ويتسلل إلى نفسي صوته الجهوري الأخاذ الذي كان يرتفع في مسجد المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليجسد سيرته العطرة كل صباح ومساء. وليتتبع أحاديثه الكريمة ويفند مروياتها لم يكن يومها ينظر إلى كتاب وإن كان الكتاب أمامه. ولا يتعثر في لغة فهو فصيح في عربية اللسان لغة القرآن الذي كان يستهدي بآياته. ولغة الأرض التي ينتمي إليها بعراقة الدين قبل عراقة النسب.

هو أحد الذين سمعتهم من علماء الحرمين الشريفين، كالشيخ محمد الأمين الجكني. والشيخ محمد نور سيف ـ رحمهما الله ـ يتعمقون في أغوار هذه اللغة فيأتون بالفصيح منها، ويتجنبون عثرات اللحن في أدائها. ويسلكون مسالك البلغاء الذين تنثال كلماتُها على ألسنتهم بعذوبة وصفاء تأتّى لهم أن يتحدثوا إلى الناس فيسمع لهم. ويرفعوا أصواتهم فتشرئب الأعناق إليهم.

هذه نبذة يسيرة من سمات الشيخ محمد المختار بن محمد سيد الأمين الجنكي ١٣٣٧ ـ ١٤٠٥هـ، الذي أنبتته عالما أرض شنقيط، ثم هاجر إلى المدينة المنورة في عام ١٣٥٦هـ، وتلقى العلم فيها على يد الشيخين عمر السالك ومحمد الحسن ـ رحمهما الله ـ ثم دخل مكة المكرمة في عام ١٣٥٩هـ، وسمع من علمائها كالشيخ حسن المشاط. والشيخ محمد العربي التباني ـ رحمهما الله ـ كما دخل الرياض وجلس إلى علمائها ومنهم الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ ولقد دعاه الشيخ ابن إبراهيم في سنة ١٣٧١هـ، للتدريس بالمعهد العلمي بالرياض. فمكث مدرسا به لمدة ست سنوات.

وفي سنة ١٣٧٨هـ استقر به المقام في المدينة المنورة، حيث عين مدرسا بدار الحديث ثم مدرسا في الجامعة الإسلامية بعد تأسيسها.

لم يكن الشيخ المختار ـ رحمه الله ـ شحيحا في العلم الذي مكن له أساتذته في جامعة الإسلام الأولى، مسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم

ـ حيث كان يلقي دروسه على طلاب العلم الذين يشدون الرحال إلى هذه البقعة المباركة طلبا للعلم. وكانت موضوعات تلك الدروس تتراوح بين علم الحديث الشريف كصحيحي البخاري ومسلم. أو في الفقة كموطأ الإمام مالك، أو في تفسير القرآن الكريم والسيرة النبوية لابن هشام.

ولقد كان إلى جانب هذا بين الفينة والأخرى محدثا في أول مسجد أسس على التقوى، مسجد قباء، ولقد أحبه القوم هناك، كما كان أسلافهم يحبون من هاجر إليهم أو أقام بينهم.

وبمثل ما كان الناس يأوون إلى درسه ويلتفون حول حلقة علمه مُنْصتين في خشوع، أو مُنَاقِشين في أدب، كانت أفواج من طلبة العلم تؤم داره الكريمة التي تحوي مكتبة تزخر بأمهات الكتب في العلوم الإسلامية والعربية، فلقد كانت تلك الدار مرجعا مكن الكثير من طالبي العلم أن يأتوا على ما يتطلبه لهم البحث، ولقد كانت شخصية الشيخ ـ رحمه الله ـ وملامحه الكريمة خير معوان لهم لبلوغ ذلك المقصد الذي كان يسر الشيخ ـ رحمه الله ـ فقد كان أحد الذين منحهم الله من الصبر والتواضع ما يجعل علمهم مشاعا بين مختلف طبقات الناس. ولقد اجتمع على حبه عامة الناس وخاصتهم.

لقد حفظ التاريخ لنا سيرة عطرة عن الشيخ نفسه ـ رحمه الله ـ وعن مآثره الكريمة. ومن بين هذه المآثر تلك الحسنة الجارية المتمثلة في أبنائه الذين نشأهم خير تنشئة وعلمهم فأحسن تعليمهم. ولعلها مناسبة كريمة أتوجه فيها إلى الدكتور عبدالله المختار. وشقيقه الأستاذ محمد في طبع ما تركه ذلك الرائد من مؤلفات ورسائل يتممان بذلك تلك الرسالة التي وهب والدهما حياته لها في صدق وإخلاص.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحــة

الإخراج الفني والتنفيذ : سـيد حـفني

المؤلف في سطور



د. عاصم حمدان علي حمدان الغامدي

* وُلِدَ في المدينة المنورة عام ١٣٧٣هـ.
* أكملَ تعليمه الإبتدائي والمتوسط والثانوي بالمدينة المنورة.
* تحصّل على بكالوريوس في اللغة العربية وآدابها ،مرتبة الشرف الأولى، من جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام ١٣٩٦هـ.
* درَسَ في جامعة لانكستر بالمملكة المتحدة، وحصَلَ على الدكتوراة في الفلسفة من جامعة مانشستر عام ١٤٠٦هـ.
* يعمل الآن أستاذاً مُساعِداً بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة.
* صَدَرَ له كتاب ،التآمر الصهيوني الصليبي على الإسلام، رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عام ١٤٠٩هـ.
* له مشاركات فكرية وأدبية في عدد من الصحف والمج العلمية.